روايات عبير



فلورا كيد

أطياف بلا وجوه

١٦٤

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 164

أطياف بلا وجوه

كم من قصة تولد او تموت لأن الصدفة تشاء ان يكون بطلاها على طرفي نقيض في نظرتها الى الحب والحياة. رجل العقل وامرأة القلب. واحد يرى بجهازه العصبي، وأخرى تتطلع في مرآة الغريزة والشعور. حاولت ايلاين طوال أشهر تسعة ان تنسى بيار. تصورت انها نجحت في ذلك، ولكنها أدركت فيما بعد ان مشاعرها نحوه لم تتغير اطلاقاً. بيار ليس من النوع الذي يمكن نسيانه بسهولة. عادت اليه قبل أربع وعشرين ساعة فقط، وها هو يملأ حياتها، يطرد منها كل شخص آخر وكل شيء، تماماً كما فعل قبل سنة واحدة عندما التقيا... وتزوجا.

ولكن عليها هذه المرة ان تقرر بشكل نهائي، لأن الأمور تجاوزت حدودها المتعارف عليها. اتخذت طابعاً مخيفاً ثم فجأة، وبدأت تلوح في الأفق أطياف مصيرية غير مرغوب فيها مطلقاً، كالطلاق مثلا...

لبنان	١٠ ل.ل	الكويت	١ د	اليمن	٤ ر	السودان	٨٠٠ م
سورية	١٠ ل.س	الامارات	١٢ د	تونس	١.٥٠٠ د	U.K.	£ 1.50
الأردن	٨٠٠ ف	البحرين	١.٥٠٠ د	ليبيا	١ د	France	F 10
العراق	٥٠٠ ف	قطر	١٢ ر	المغرب	٥ د	Greece	Drs 200
السعودية	١٢ ر	عمان	١.٥٠٠ ر	مصر	١٢٥ ق	Cyprus	P 1.50

والشلل التام في حركة السيارات. عاد العمال من مصانعهم، والمزارعون من حقولهم، والموظفون من مؤسساتهم، وبدت الطريق مقفرة ومهجورة تماماً. . . باستثناء سيارتها الحمراء الصغيرة و. . .

لاحظت فجأة وللمرة الثامنة تقريباً، ان ثمة سيارة سيتروين رمادية اللون تلحق بها. لم تتضايق من وجود هذه السيارة وراءها، وهي تخرج من منطقة باريس الى الطريق الرئيسية التي تربط العاصمة بالمدن الريفية. ففي فرنسا بضعة آلاف من سيارات السيتروين الرمادية اللون، وقد لا تكون السيارة المنطلقة وراءها هي التي تتعقبها منذ بعض الوقت. ولكن الشكوك بدأت تراودها عندما وصلت الى بواتيه، لأن تلك السيارة ذاتها لا تزال وراءها تلاحقها كظلها. كانت المسافة الفاصلة بينهما مدروسة بدقة على ما يبدو، لأن ايلاين لم تكن قادرة على قراءة رقم السيارة أو معرفة ما اذا كان سائقها رجلاً ام امرأة.

نظرت مجدداً الى مرآة سيارتها، فازداد توتر اعصابها وتسارعت ضربات قلبها. تأكد لها عندئذ، وبعدما افسحت المجال مرات عديدة دون جدوى لتلك السيارة الكبيرة القوية كي تتجاوزها، بأن السائق يعرفها. . . ويجد لذة فائقة في اثارة اعصابها وتعذيبها بملاحقتها على هذا الشكل الرهيب.

قطبت حاجبيها بعصبية بالغة وتمتمت بكلمات قاسية، عندما ذكّرتها تصرفات سائق سيارة السيتروين بشخص ما لم تتوقع مشاهدته قبل وصولها الى القصر. . . شخص تمكنت من تجنب مقابلته أو رؤيته منذ حوالى تسعة اشهر. انه زوجها بيار دوروشيه، الذي تركته بعد اربعة اشهر فقط من زواجهما. . . عندما علمت بخيانته لها.

احمّر وجهها غضباً وانفعالاً ، فمجرد التفكير بما حدث في العام الفائت لا يزال يؤلمها ويعذبها. كم كانت غبية في حبّها له، وسخيفة حتى التفاهة، عندما قبلت دون تردد الارتباط بذلك المغامر المتحجر

القلب الذي لا يعتبر الزواج سوى وسيلة ملائمة لتحقيق أغراض معينة!

تفجر الحقد في داخلها، وهي تتذكر بيار وكيفية اذلاله لها، ولم تعد تفكر الا بالهرب من تلك السيارة الرمادية التي تلاحقها بصورة مستمرة. ضغطت على دواسة السرعة وأطلقت العنان لسيارتها الصغيرة، فشعرت بتجاوب فوري من الرينو الجديدة التي بدت كغزال يفر من وجه أسد جائع.

ركزت ايلاين كل اهتمامها على الطريق الممتدة امامها، مكتفية بالقاء نظرة سريعة بين الحين والآخر على المرآة المثبتة على بابها للتأكد من ازدياد المسافة الفاصلة بين السيارتين. برز امامها فجأة منعطف نحو اليسار، فحاولت استخدام المكبح للحد من السرعة الجنونية لسيارتها الصغيرة . . . ولكنها لم تفلح. شردت الرينو الحمراء عن الطريق، وانزلقت على العشب الجاف بضعة امتار قبل أن ترتطم مقدمتها بحافة احدى القنوات المخصصة لري الحقول المجاورة.

لم يلحق بها اي أذى، ولكن الصدمة النفسية والمعنوية ارهقتها ووترت اعصابها. اطفأت محرك السيارة وأسندت رأسها الى المقود في محاولة منها للحد من هذا التوتر الشديد والسيطرة عليه. أوقف الرجل سيارته الى جانب الطريق، وهرع نحو السيارة الأخرى التي كان يلاحقها دون كلل منذ فترة طويلة. فتح باب الرينو ولكنه لم يتبين وجه سائقتها، لأن الشعر الذهبي كان يغطي وجهها. سألها بلهفة، وباللغتين اللتين يتقنها جيداً:

- ماذا حدث لك، يا سيدتي؟ هل انت بخير؟

هذا هو صوته القوي الرنان . . . صوت بيار دوروشيه، الذي حاولت عبثاً أن تنساه أو حتى أن تطرد صداه من عقلها وقلبها. لم تحرك رأسها أو تزعج نفسها بالرد عليه، فكرر الشق الثاني من سؤاله بلهجة تنم عن القلق والانفعال. أحست برغبة قوية في تعذيبه والانتقام منه، ولو لجزء يسير مما اصابها بسببه وعلى يده. ليظن انها

فقدت وعيها أو ربما ماتت، فقد يشعر بوخز الضمير. . هذا اذا كانت لا تزال لديه بقية منه!

سمعته يشتم بالفرنسية ثم أحست بيديه القويتين تمسكان بكتفيها، فشعرت بالخوف. . . والبهجة. لم تكن لتتصور ان لمسته لها لا تزال ذات تأثير مدمر كهذا، بعد أشهر عديدة من البعد والفراق. . . وبعد الجهود المكثفة التي بذلتها لطرده من تفكيرها و. . . قلبها! هل تحاول التخلص منه أو المضي في تعذيبه؟

تغلب حب الانتقام المؤقت، فقررت كبح جماح عواطفها وأحاسيسها ومواصلة التظاهر بالاغماء. أبعد رأسها ببطء عن مقود السيارة وأسنده الى المقعد. كيف سيكون رد فعله الآن، بعد أن شاهد وجهها؟ انتظرت بضع ثوان، فلم يحدث شيء على الاطلاق. ظل صامتاً ودون حراك، وكأنما الأرض انشقت وابتلعته أو كأنه تبخر في الهواء. ألا يتنفس؟ ألا يشعر بالذنب لتسببه في هذا الحادث الذي كاد يودي بحياتها؟ لماذا لا تسمع سوى زقزقة العصافير وحفيف أوراق الشجر؟ قررت أن تفتح عينيها قليلاً وتئن بصوت خافت، ليعرف انها حية وبدأت تستعيد وعيها.

- تبدين جميلة جداً، يا امرأتي الحبيبة، ولكنك غير قادرة على خداعي. فاحمرار وجنتيك الى هذه الدرجة يثبت، بشكل قاطع، انك لم تفقدي وعيك أو تتعرضي لأي اذى.

اختفت نبرة القلق من صوته العميق، وحلت محلها تلك السخرية الحادة . . . وبخاصة عند اشارته الى العلاقة التي تربط بينهما. فتحت عينيها البنيتين واستوت في جلستها، ثم حدقت به وبعينيه الزرقاوين الهازئتين. لم يتغير فيه شيء اطلاقاً. . . شعره الأسود الكثيف الذي خطه الشيب المبكر هنا وهناك، سمرة وجهه الناشئة عن التعرض للشمس، وفمه الجذاب الذي كان دائماً يلهب عواطفها ومشاعرها. يا لهذا الاغراء الفتاك الذي لم يخفف البعد والاشمئزاز من قوته وهيمنته! سألته بتحد ظاهر:

- لماذا تتبعني؟
رد عليها ببرودة اربكتها وأزعجتها:
- هل كنت أتبعك؟

أليس محتملاً أن يكون وجوده وراءها مجرد مصادفة؟ ربما كان عائداً من بواتيه! لمعت عيناه مجدداً بذلك البريق الساحر وافتر ثغره ثانية عن تلك الابتسامة الخفيفة الهازئة، فتاكد لها انها على حق . . . وانه كان يتبعها طوال الوقت. قالت له بحدة:

- طبعاً كنت تفعل ذلك. تعمدت ملاحقتي على هذا النحو المزعج لكي . . . لكي تعذبني وتثير اعصابي.

اتسعت ابتسامته واتسمت فجأة بالرقة والنعومة، بحيث بدت كأنها واحة أمينة في صحراء وجهه القاسي المخيف. وضع يده برفق على خدها، وقال بصوت هادىء:

- اوه! كم تعرفين طباعي جيداً، ايتها العزيزة. ألا يقال ان الشرير الذي تعرفه أفضل من الذي لا تعرفه! فكري بهذا المثل ملياً خلال الأيام القليلة المقبلة التي ستمضينها في القصر.

أحست بشيء من الخوف، لأنه اكتشف على ما يبدو السبب الحقيقي لمجيئها. أبعدت رأسها عنه بعصبية واضحة، وقالت بلهجة صارمة:

- لن اطيل البقاء هنا، فأنا مضطرة للعودة الى عملي قبل صباح الاثنين.

ابتسم باستخفاف وتمتم قائلاً:
- سنرى، يا عزيزتي، سنرى.

أزعجها جوابه الهادىء، فقررت على الفور اتخاذ جانب الحيطة والحذر. . . والتصدي له بكامل قوتها. لن يكون سلساً أو مرناً ابداً، عندما يصمم على تنفيذ خطة معينة. قالت له بقوة:

- لن أبقى هنا اكثر من ذلك، يا بيار. لن تقدر على ارغامي.

هز كتفيه فشعرت ايلاين انه لن يجادلها وتهيأت لتعليقه الجديد.

قال لها بصوت ناعم رقيق:

- بما انك لم تتعرضي لأي اذى، فهل تقبلين اقتراحي بمتابعة الرحلة معي؟ اشك كثيراً فيما اذا كان بالامكان اخراج سيارتك من هذه الحفرة، دون الاستعانة بمعدات مناسبة.

أفزعتها كلماته عن المعدات الضرورية، فخرجت بسرعة لتفقد السيارة الصغيرة ومعرفة مدى الاضرار التي لحقت بها. بدت الرينو الحمراء سليمة تماماً، ولكن حافة القناة مرتفعة بشكل يحول دون اخراج السيارة بالوسائل العادية. انه على حق، فلا بد من الاستعانة برافعة! سمعته يقفل باب السيارة ويتوجه نحو صندوقها، فأحست باستياء بالغ وسألته بانفعال شديد:

- ماذا تفعل؟

اجابها بهدوء مثير للأعصاب، وهو ينفذ ما يقول:

- اخرج حقيبتك من الصندوق، لأنك لست قادرة على الاستغناء عنها.

- اتركها في مكانها! لا يحق لك ابداً التصرف معي على هذا النحو، أو التحدث الي بهذا الشكل الآمر.

وضع الحقيبة على الأرض ثم اقفل صندوق السيارة الصغيرة بعصبية، قبل أن يوجه اليها نظرة ساخرة ويقول لها ببرودة مزعجة:

- العكس هو الصحيح، يا عزيزتي. فلي كل الحق في الاعتناء بك وبأمتعتك، وفي اصدار أي تعليمات اعتبرها هامة وضرورية. انت. . . زوجتي ، ايتها الحبيبة.

قفز فوق قناة الري الجافة بخفة ونشاط، على الرغم من وجود حقيبتها في يده. لحقت به ايلاين بصعوبة، وهي تنزلق حيناً وتكاد تهوي حيناً آخر. وعندما وصلت الى المكان الذي أوقف فيه سيارته، لاحظت ان حقيبتها اصبحت داخل الصندوق المغلق. قال لها بلهجة حازمة، وهو يتوجه لفتح بابه:

- هيا بنا!

- انتظر... فحقيبة يدي لا تزال في الرينو.

ركضت بسرعة نحو السيارة الصغيرة، فتزحلقت على العشب الجاف ولم تتوقف الا عندما ارتطمت رجلها باحدى العجلتين الخلفيتين. قامت لتفتح الباب، فكادت تدوس على المفاتيح التي رماها بيار في تلك اللحظة بالذات. أخذت حقيبتها الصغيرة واقفلت باب السيارة مجدداً، ثم بدأت الصعود ثانية وهي تتمنى لو انها كانت مرتدية ثياباً اخرى تناسب هذه المناطق الريفية... عوضاً عن الفستان الحريري الأخضر الذي يليق بعاصمة الأزياء نفسها.

كان بيار جالساً وراء مقود السيارة، وقد أدار محركها استعداداً للانطلاق. فتحت الباب ودخلت بهدوء لتجلس قربه. ولم تكد تغلق الباب وراءها، حتى انطلقت السيتروين بسرعة جنونية، وكأنما صاحبها يريد الوصول الى وجهته في أقل وقت ممكن. قال لها بعد لحظات:

- ستوقف في محطة الوقود الموجودة على هذا الجانب من القرية، لابلاغ مارسيل عما حدث. لديه شاحنة مزودة برافعة، وأنا متأكد من انه سيهب للمساعدة... اكراماً لعينيك. انه يسألني دائماً عنك، وعن موعد عودتك الى شامبورتن.

أدارت وجهها عنه بسرعة، وركزت نظرها على تلك القرية الجميلة التي بدأت تلوح كالسراب وسط السهول الخضراء المحيطة بها من كل جانب. ها هي القرية التي تزوجت فيها، وها هو واحد على الأقل من أبنائها الطيبين يسأل عنها! شعرت بتأثر شديد لم تكن تتوقعه، احست بأن شامبورتن بدأت تمارس ضغوطاً نفسية عليها... لاقناعها بأنها جزء من هذه القرية الساحرة، وبانها ارتكبت خطأ فادحاً عندما غادرتها.

لا، يجب الاّ يحدث ذلك ابداً! ستقاوم كافة محاولات الاقناع والاغراء، الهادفة الى ايقاعها في الشرك. وأهم من ذلك كله، انها ستكافح بقوة أي محاولة قد يقوم بها الرجل الجالس قربها لاعادة تلك

العلاقة التي تحولت خلال فترة وجيزة الى ألم ومرارة وعذاب. ولذا، فانها لم تنزل من السيارة عندما اوقفها بيار امام المرآب الذي يعمل فيه مارسيل دوديه وابنه كلود. فضلت البقاء في السيارة وتحمل حرارة الشمس القوية والجو الخانق، كيلا تضطر لمواجهة هذين الشخصين اللذين سيفتحان بالتأكيد جراحاً تكاد تنجح في تضميدها.

استفاقت فجأة من احلام اليقظة... واستعادة بعض الذكريات، عندما سمعت قهقهات بيار ومارسيل وهما يتطلعان نحوها. لا شك انهما يضحكان عليها، بعدما أخبر بيار جاره... وبشيء من المبالغة... تفاصيل الحادث الذي تعرضت له. أبعدت وجهها عنهما دامعة العينين ومتوترة الأعصاب، لأن بيار لا يهتم بها اطلاقاً... بحيث انه لا يتوانى عن التندر بمشاكلها امام أي كان.

رفعت رأسها قليلاً، فشاهدت مارسيل قرب بابها، يبتسم لها ويحييها بطريقته المحببة المعتادة. لم يعد بامكانها تجنبه... ولم يعد من اللائق تجاهله. انزلت زجاج النافذة للتحدث معه، فبادر الى القول مرحباً:

- طاب نهارك، يا آنستي... اوه، عفواً، يا سيدتي. انا سعيد برؤيتك ثانية.

رفعت لهجته الودودة الصادقة معنوياتها بعض الشيء، فابتسمت له وقالت بعفوية فوجئت بها:

- أسعد الله يومك، يا سيد دوديه. انا مسرورة بوجودي هنا، وبمقابلة الناس الطيبين امثالك. ارجو أن تعتني جيداً بالسيارة المستأجرة، وتحضرها الى القصر في أسرع وقت ممكن.

- سيكون ذلك من دواعي فرحي البالغ، يا سيدتي... تماماً كما كنت اشعر عند اصلاح دراجتك الهوائية. هل تذكرين تلك الأيام، عندما كنت تركبين الدراجة وتأتين الى القرية لشراء الحلوى من السيدة سوريل؟

- طبعاً، اذكر ذلك. كيف حال السيدة سوريل هذه الأيام؟

- ليست جيدة على الاطلاق. انها الآن في المستشفى الرئيسي

للمقاطعة.

- اوه، انا آسفة جداً لسماع ذلك.

- سأذهب وزوجتي غداً بإذن الله لزيارتها. ستسر كثيراً عندما أخبرها بمجيئك. الى اللقاء، يا سيدتي.

انطلقت السيارة الكبيرة مرة اخرى، ولكن بسرعة عادية جداً سمحت لايلاين بالتمتع مجدداً بالمناظر الطبيعية الخلابة. وقبل وصولها الى بداية القرية، تنهدت وسألت بيار بتردد:

- كيف حال الخال ارمون؟

- انه يموت!

اخترق جوابه قلبها كخنجر حاد، فأحست بالدموع الحارة تحرق عينيها. تمالكت نفسها وسألته مجدداً:

- ووالدتك؟

- تمضي طوال الوقت الى جانبه، كما يجب على كل امرأة أن تفعل عندما يكون زوجها مريضاً. هكذا قالت لي، عندما نصحتها مرة بأخذ قسط من الراحة.

أحست بوخز انتقاده اللاذع للكيفية التي تركته بها في العام السابق، وشعرت بشيء من الندم لأن تصرفها هذا هو السبب المباشر لهذه السخرية الحاقدة. وضعت مرفقها على حافة النافذة وأسندت رأسها على راحة يدها، وأخذت تفكر بمارجريت. . . والدة بيار وزوجة ارمون. تذكرت فوراً استياء جدتها ألانور، عندما علمت بزواج شقيقها ارمون البالغ من العمر آنذاك خمسة وستين عاماً من مارجريت دورروشيه. . . مدبرة منزله وأرملة جون دورروشيه، الذي تولى لسنوات ادارة كروم العنب الخاصة بعائلة سان فيران. ذهلت جدتها عند سماعها النبأ، وصرخت قائلة:

- ورباه، لا بد انه جُنّ! امضى طوال حياته عازباً، ليتزوج مارجريت؟ ثمة عزاء واحد فقط، وهو انها تخطت سن الانجاب.

لم يعنِ هذا الأمر شيئاً لايلاين، لأنها كانت في الثانية عشرة من

عمرها وغير عابئة اطلاقاً بالأمور الحياتية المعقدة للراشدين. ولكنها لم تتمكن من تمضية ذلك الصيف كعادتها في شامبورتن، لأن جدتها اصيبت بجلطة دماغية حادة أدت الى وفاتها في المستشفى خلال اسابيع قليلة.

وجدت ايلاين الصغيرة نفسها فجأة وحيدة يائسة، لأن ألانور سان فيران كوبر لم تكن جدتها فحسب. . . بل أهلها وعائلتها. فهي تحضنها بمحبة وحنان مذهلين منذ الرابعة من عمرها، عندما توفي والداها في تلك الحادثة المشؤومة.

اهتم بها ابن عم والدها، تشارلز كوبر، الذي يتولى ادارة احدى شركات الاستيراد وأفضلها سمعة. لم تزر شامبورتن طوال السنوات الثماني التي تلت وفاة جدتها، ولكنها ظلت تراسل شقيق الجدة بصورة متواصلة ومنتظمة. كانت تكتب له بالفرنسية، التي علمتها اياها ألانور قراءة وكتابة. . . والتي ظلت تتعلمها في المدرسة حتى تخرّجها. تمنت اكثر من مرة زيارة الرجل العجوز الذي تحبه، ولكن عمها تشارلز كان يؤمن لها ولابنتيه الموجودتين معها في نفس المدرسة رحلات سنوية رائعة الى اسبانيا أو اسكتلندا أو الجزر اليونانية.

وعندما اصبحت في الحادية والعشرين من عمرها وبدأت تعمل في شركة عمها التجارية، قررت قبول دعوة عاجلة من خال والدها لزيارة شامبورتن مرة اخرى بعد هذا الغياب الطويل. ذهبت في مثل هذا الوقت من العام الفائت، فتعرفت الى بيار دورروشيه الذي تولى مهمة والده الراحل. . . وأحبته.

برز القصر الصغير الأنيق فجأة امام ناظريها، فشعرت بتلك الجاذبية القوية التي تشدها الى هذا المكان الرائع. هل يعود هذا التعلق بشامبورتن، لأن بعض دماء سان فيران تجري في عروقها؟ طبعاً! ألم تكن جدتها الحبيبة ابنة هذه العائلة العريقة، التي تتوارث القصر والأراضي المحيطة به منذ اجيال عديدة؟ انها جزء من هذا التراث. . .

- يا لروعة هذا المكان!

خفف بيار سرعة سيارته وأوقفها في فسحة جانبية، مخصصة للسياح الذين يتوقفون فيها لتأمل المناظر الطبيعية الخلابة. اطفأ محرك السيارة، وسألها بهدوء:

- اذا كنت تعتبرينه رائعاً الى هذه الدرجة، فلماذا تركته قائلة انك لن تعودي اليه ابداً؟

- أنت تعرف السبب، فقد كتبت لك واطلعتك على المشكلة. لا يمكنني السكن في شامبورتن طالما انك موجود هنا، ولست قادرة على العيش معك كزوجتك. اوه، بيار، لماذا لا تعترف بحقيقة الوضع القائم؟ فانت وأنا نفكر بطريقتين مختلفتين بالنسبة الى الزواج و. . .

قاطعها بحدة قائلاً:

- صحيح، صحيح. فالزواج بالنسبة اليك خطوة أقدمت عليها بسبب الحماس، وحرارة الصيف، والورود! هكذا كان مزاجك في ذلك الوقت، وتصورت آنذاك انك قادرة على التراجع عن هذه الخطوة في أي فترة لاحقة. . . اذا تبين لك عدم جدواها.

- اوه، بيار! وماذا عنك أنت؟ ألم تتزوجني لتحقيق مآرب معينة. . . لضمان مستقبلك مع الانسان الوحيد الذي قد يرث اراضي شامبورتن وقصرها؟ ولكنك اخطأت في تقديرك، يا سيد دوروشيه. تصورت اني سأكون زوجة بسيطة خانعة، تمضي نهارها وليلها في البيت لاعداد الطعام وغسل الثياب وتنظيف الأرض والأثاث. . . فيما تسعى انت وراء المتعة الرخيصة في أحضان امرأة اخرى!

كان يتطلع الى الخارج طوال الوقت الذي استغرقه حديثها الغاضب. وعندما توقفت لحظة لاستعادة انفاسها، ادار وجهه نحوها ببطء شديد ثم رفع أحد حاجبيه تهكماً واستهزاء وقال:

- وأخيراً، وصلنا الى لب الموضوع وجوهره. لم يرد في أي من رسائلك ذكر امرأة اخرى، كأحد الأسباب التي حملتك على هجري.

نفت الشق الأخير من كلامه بصوت مرتجف:

- انا لم اهجرك.

- مهلاً، مهلاً، ايتها العزيزة، فنحن لسنا الآن في معرض التلاعب بالكلام. انت تركتني ورفضت العودة، مع انني اقترحت عليك ذلك. هل توجد كلمة اخرى غير الهجر لوصف هذه الخطوة؟

توقف لحظة، ثم مضى الى القول ضاحكاً:

- هل تتكرمين الآن بابلاغي اسم المرأة. . . التي يفترض انني وجدت المتعة في احضانها، اثناء الأشهر القليلة التي عشناها معاً؟

ضايقتها نظراته الساخرة، فأبعدت وجهها عنه وقالت:

- سولانج بورجيه.

- ومن اخبرك ذلك؟

- هي بذاتها.

سألها بنبرة تنم عن الاستغراب. . . والطرافة:

- وصدقتها؟

استدارت نحوه وصرخت في وجهه غاضبة:

- اوه، يكفيك استهزاء بي! من يعرف شهرتك كزير نساء قبل زواجنا، لا يجد أي صعوبة في تصديق كلام كهذا.

زاد الحر الشديد داخل السيارة من توتر اعصابها، فشعرت كأنها تكاد تختنق. كانت تأمل الى حد ما في سماع نفيه لادعاء سولانج. لكنه لم يقل شيئاً، فاضطرت ثانية الى قطع حبل الصمت الثقيل. . . قائلة:

- هل يمكننا متابعة طريقنا الى القصر؟

تنهد بارتياح، وقال:

- بعد قليل.

نظرت اليه، فلاحظت اختفاء ملامح التهكم والسخرية من وجهه وعينيه. تأملها بعض الوقت، ثم أخرج علبة سكائره وفتحها امامها لتأخذ احداها. . . فرفضت. أشعل سيكارته، فتسمرت

عيناها على القداحة... لأنها لم تكن هي نفسها التي كان يستخدمها قبل تسعة اشهر. نفث الدخان الى أعلى، وقال لها بصوت هادىء:

- ثمة أمر اريد اطلاعك عليه. ذهبت أمس الى باريس بهدف تمضية الليل هناك، للتمكن من استقبالك صباحاً وللبحث معك اثناء عودتنا في موضوع هام الى حد ما.

- ذهبت لاستقبالي؟ لماذا لم تكن في المطار لدى وصولي؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة وحزينة بعض الشيء، وبدا كأنه يسخر من نفسه. قال لها:

- نزلت ضيفاً على صديق قديم، فأمضينا معظم الليل نستعيد ذكريات الماضي ونتحدث عن الحاضر والمستقبل. لم اتمكن من النهوض باكراً، فوصلت الى المطار حوالى الحادية عشرة الا ربعاً. استفسرت عنك في وكالات تأجير السيارات، فعلمت انك اخذت سيارة رينو حمراء. لم أقدر على اللحاق بك الا عندما ابتعدت عن ضواحي باريس وأصبحت على مقربة من شارتر، لأنك تقودين سيارتك بسرعة فائقة.

- ولكن... اذا كنت حقاً تريد التحدث معي في أمر هام، فلماذا لم تتجاوزني وتوقفني؟

هز بيار منكبيه العريضين، وأجابها بشيء من الانفعال:

- يمكنك ايضاً توجيه سؤال مماثل عن سبب اطالة السهرة ليل امس، فالجواب هو اياه.

- لم افهم.

- اي ايضاح من جانبي يعني كشفاً تاماً لروحي، وهذا أمر أرفض القيام به أمام أي امرأة... حتى انت، يا امرأتي الحبيبة.

استشاطت غضباً بسبب تكرار هذه التسمية المزعجة، وقالت بحدة:

- توقف عن مناداتي على هذا النحو.

- لماذا؟ انت لا تزالين زوجتي! لم يتم أي طلاق بيننا، مع اننا لم

نعش معاً منذ حوالى سنة.

تململت ايلاين في مكانها، وأزاحت شعرها الطويل المتموج عن وجهها وجبينها بكثير من العصبية. ارادت أن تقصه مع بداية الصيف في العام الماضي وخلال السنة الحالية، ولكنها ترددت وامتنعت عن القيام بذلك... لأن هذا الرجل اللعين يحب الشعر الطويل. سألته بصوت، حاولت جاهدة أن يكون بارداً وقاسياً:

- هل هذا هو الموضوع الذي تريد بحثه معي؟ الطلاق؟

رفع يده لمسح العرق عن جبينه، وقال:

- لا يمكن بحث اي موضوع هنا، بسبب هذا الحر الشديد. هيا، لنقم بنزهة قصيرة بين تلك الأشجار.

ترددت... فهذه هي المنطقة التي كانا يأتيان اليها قبل عام، والتي شهدت أول عناق بينهما. تذكرت بسرعة كيف أجلسها قربه في ذلك اليوم الربيعي الجميل، ثم مددها على بساط ناعم من الأعشاب وبدأ يعانقها برقة ونعومة... وظنت في تلك اللحظات السعيدة انها تحبه وتريد الزواج منه...

فتح بيار بابها بحدة، وسألها بانفعال:

- هل ستأتين؟

لم يبال حتى بالنظر اليها. بدا بعيداً عنها قلباً وقالباً، كانسان غريب تلتقيه للمرة الأولى. هل هذا هو نفس الرجل الذي امضت واياه بضعة اسابيع من الغرام والهيام وصلا خلالها الى ذروة السعادة؟

خرجت من السيارة ومشت معه نحو تلك البقعة الجميلة التي تظللها اغصان الشجر وتغطي ممراتها سجادة سميكة من الأوراق الصفراء الجافة. كان السكون شاملاً، وكأن الطبيعة غارقة في سبات عميق. قال لها بيار فجأة:

- مما لا شك فيه انك تعرفين الى حد ما رأي ارمون فيما يتعلق بموضوع انفصالنا. انه يحبنا... فهو خال والدك وزوج امي ورب عملي.

تجاهلت الجملة المتعلقة بالقربى، وقالت معلقة على الجملة الأولى:

- نعم، اعرف. فقد كتب لي مراراً عن هذه المسألة.

- ربما تعرفين اذن، انه يتمنى من صميم قلبه قيام مصالحة بيننا؟

- اعرف ذلك ايضاً، عبر الرسالة التي كتبتها لي والدتك وأبلغتني فيها عن مرضه... ورغبته في مشاهدتي. وقد قلت لها في جوابي، ان المصالحة مستحيلة.

قال لها بحدة:

- اطلعتني امي على تلك الرسالة، ولهذا فقد رأيت من الضروري اجراء هذا الحديث معك قبل وصولك الى القصر.

صمت لحظة ثم مضى الى القول:

- لم يعد ارمون قادراً على القراءة بسبب الضعف الشديد في نظره، ولذا فأمي هي التي تقرأ له كافة الأمور التي يريد الاطلاع عليها. قرأت له رسالتك كما هي تماماً، ولكنها استبدلت كلمة واحدة بأخرى... بهدف اسعاده. انه يعتقد الآن ان مصالحتنا ممكنة... وهذه هي الكلمة البديلة، وانها ستتم بمجرد وصولك الى القصر بعد فترة وجيزة.

تسمرت ايلاين في مكانها، وقالت باستغراب وانفعال شديدين:

- كيف تجرؤ على ذلك! كيف تجرؤ امك على التدخل في شؤوني؟

توقف بيار عن السير، ثم استدار نحوها وقال بلهجة جافة:

- اسمحي لي ان استخدم كلمة... شؤوننا، فأي مصالحة فيما بيننا تخصني انا ايضاً. واؤكد لك في هذا المجال بأن والدتي تجرؤ على أي شيء تراه ضرورياً، لأنها لم تعد تتحمل رؤيته يتألم ويتعذب بسبب تصرفاتك المتهورة الطائشة.

جرح الانتقاد كبرياءها وعزة نفسها، ولكنها رفضت منحه اي فرصة لتذوق طعم الانتصار عليها. رفعت حاجبيها ضاحكة، وقالت له بتهكم واضح:

- لا، يا سيد دوروشيه. اتصور انها حوّرت جملتي عن استحالة قيام مصالحة بيننا، تمشياً مع طموحاتك ومصالحك.

اتسمت ملامح وجهه بالحيرة والاستغراب لبرهة وجيزة، ثم قال:

- يا لها من نظرية مثيرة للاهتمام! ولكني لا ارى اي علاقة بين مصالحتنا المحتملة وطموحاتي، بغض النظر عن ماهية هذه الطموحات أو نوعيتها.

ضحكت باستهزاء بالغ، وسألته ببرودة:

- وهل نسيت لماذا تزوجتني؟

اجابها بهدوء مثير للدهشة:

- لا، لم أنسَ، ولكني اود سماع رأيك انت بهذا الخصوص.

- كنت تعلم انني سأرث جميع ممتلكات خال والدي، وان الخال ارمون قد يغير وصيته... اذا تزوجتني... بحيث يجعلك شريكي التام في الأرث. وتعلم الآن ايضاً انه اذا لم تتم المصالحة فيما بيننا، فقد يعمد الى تغيير وصيته مجدداً بحيث أعود انا مرة اخرى الوريث الوحيد.

حدق بها بعض الوقت، ثم هز كتفيه وقال لها بصوت رقيق ساخر دخل الى قلبها كالسكين:

- انت واثقة جداً، على ما يبدو، بانه سيغير وصيته لتصبح في صالحك وحدك.

- نعم! فأنا سأكون بعده الانسان الوحيد الباقي على قيد الحياة والذي تسري في عروقه دماء عائلة سان فيران. وقد ذكرت لي جدتي مرة...

قاطعها بلهجة تنم عن الازدراء والاستخفاف، قائلاً:

- اوه، جدتك! سمعت كل شيء عنها وعن مؤامراتها، وكيف تفجر الحقد في قلبها عندما أدركت انها لن ترث شيئاً عن والدها... لأن شامبورتن بكاملها تُركت لشقيقها الأصغر.

- هذا غير صحيح، غير صحيح اطلاقاً! لم تحك اي مؤامرات ضده، ولم تشعر بأي حقد تجاهه. كانت تحبه كثيراً.

- طبعاً، طبعاً! كانت تحبه الى درجة مذهلة، بحيث انها وقفت كسد منيع في وجه زواجه أثناء شبابه من المرأة الوحيدة التي احبها، كيلا يرزق اولاداً يرثونه. . . ويظل ابنها، والدك انت، وريثه الوحيد. ولكن القدر احبط مخططاتها، عندما قتل والدك في ذلك الحادث. فتولت الاهتمام بك، ودأبت على احضارك الى هنا كل عام وتدريبك على كيفية ارضاء ارمون بشتى الوسائل كي. . .

قاطعته، صارخة بحدة بالغة:

- لم احاول ابداً القيام بأعمال تافهة كهذه. كما ان جدتي كانت ارفع بكثير من هذه المستويات التي تحاول تصويرها بها. يا لك من انسان وضيع وحاقد!

- وضيع وحاقد لأنني اكشف لك بعض الحقائق؟!! لم تسمعي الحقيقة كلها بعد، يا زوجتي العزيزة. فعندما قررت الهرب قبل تسعة اشهر لاعتقادك بأن الزواج مني لا يناسبك، لم تفكري ابداً بتأثير ذلك التصرف الأرعن على خال والدك. نسيت انه تقليدي جداً في أفكاره ومعتقداته، وان الزواج بالنسبة اليه ارتباط روحي مقدس يجب الا يعمل احد على فسخه. لو لم يكن مؤمناً بهذا المبدأ طوال حياته، لكان حاول تحطيم زواج امي من ابي وسلخها عنه وهو لا يزال في ريعان الشباب.

صمت بضع لحظات، وكأنه ينتظر منها تعليقاً على كلامه. ولكن الدهشة التي اصابتها، لدى سماعها هذه الأقوال عن الناس تعرفهم طوال حياتها، عقدت لسانها وشلت تفكيرها. اضاف بيار قائلاً، بلهجة اكثر نعومة:

- اعتقد ان خالك حاول جاهداً انقاذ زواجنا، وذلك عن طريق الكتابة اليك وتقديم الارشادات والنصائح. ولكنك قررت تجاهل نصيحته ورفضها، فاحس بانزعاج فائق. قد لا تدركين اهمية هذه

النقطة بالذات، ولكن الطاعنين في السن ينقلبون احياناً ضد الذين يجرحون مشاعرهم. وعليه، فقد تكونين على حق فيما يتعلق باحتمال تغييره وصيته. . . مع فارق بسيط، وهو ان التغيير سيكون لمصلحتي انا.

ثم ابتسم بسخرية، ومضى الى القول:

- اذا اخذت هذه المسألة بعين الاعتبار، فسوف تجدين ان التعديل الذي أجرته والذي على نص رسالتك لا يناسب طموحاتي اطلاقاً. وباختصار، فاصرارك على عدم اجراء مصالحة فيما بيننا سينفعني اكثر بكثير مما سيضرني.

اذهلتها كلماته وبرودة اعصابه، فظلت صامتة لا تعرف ماذا تقول. . . أو تفعل. حدقت بهذا الرجل الأسمر القاسي الذي يقف امامها بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين وكأنه مجرم شرير ارسلته عصابة لمعاقبتها وتعذيبها. اذا أصرت على موقفها الحالي بالنسبة للانفصال، فسوف تدفع الثمن غالياً. . . ستخسر شامبورتن! اقترب منها، وقال لها بلهجة رقيقة ناعمة توحي باستعداده للمصالحة:

- بما انك الآن هنا، فقد نتمكن من التوصل الى بعض الترتيبات.

خافت من احتمال اقترابه منها الى درجة تسمح له بملامستها أو ضمها اليه، فصرخت قائلة:

- لا، لا، لا يمكنني! لا اريد!

استدارت بسرعة وركضت نحو سيارته التي ترك مفتاحها فيها. اذا وصلت اليها قبله، فقد تتمكن من ادارة محركها وقيادتها الى القرية. زلت قدمها على أوراق الشجر الجافة، فهوت الى الأرض وارتطمت ركبتها بحجر كبير. تألمت كثيراً، ولكن جرح الكبرياء كان أعمق وأشد ايلاماً. همت بالنهوض، فأحست بيد قوية تمسك بذراعها وترفعها. حاولت التخلص منه، فلم تفلح. قالت له بحدة بالغة:

- اتركني! لا تلمسني!

ضغط على ذراعها بعنف اوجعها، فكررت محاولاتها اليائسة للتخلص من قبضته الفولاذية . . . ولكن دون جدوى. جذبها نحوه فجأة وبشكل مؤلم للغاية، فاحست بان ذراعها تكاد تنفصل عن كتفها. امسك بذراعها الأخرى وضمها اليه، فنظرت اليه بتمرد واضح عبر خصلات الشعر التي غطت معظم وجهها. قال لها بعصبية شديدة:

- حان الوقت، ايتها الجبانة الأنانية الصغيرة، للتوقف عن التهرب من مسؤولياتك. لقد تحسنت حالة خالك النفسية والمعنوية بشكل ملفت للنظر، منذ أن ابلغته أمي عن مصالحتنا المحتملة . . . وهو يتطلع الآن قدماً لرؤيتك. فاذا اقتحمت غرفته وقلت له ان المصالحة مستحيلة، فسوف يصاب بصدمة قوية تعجل في وفاته. هذا هو السبب الوحيد الذي حملني على التحدث اليك، وتحذيرك.

سيطرت بعض الشيء على ارتجاف جسمها، وقالت له بصوت منخفض يشتعل غضباً وانفعالاً:

- لا تزعج نفسك بمثل هذه الايضاحات التي لا ضرورة لها، فانا مدركة تماما لما تريد قوله. ولكني لم احضر الى شامبورتين لمصالحتك، او الاتفاق معك على امور معينة. اريد الطلاق، وما من شيء في الدنيا سيحملني على تغيير هذا الرأي . . . بما في ذلك احتمال خسارتي حق الوراثة.

ثم هزت رأسها بعنف، وصرخت بوجهه قائلة:

- الا تلاحظ انني اكرهك؟

- لا الاحظ الآن الا شيئاً واحداً، وهو انني اثير فيك مشاعر العنف . . . التي افضلها على اللامبالاة. ولكنني لم اكن انوي ان اقترح تغيير رأيك بالنسبة الي.

تنهدت ايلاين بعصبية وحاولت مرة اخرى التملص من قبضته . . . ولكن دون جدوى. بدأت حرارته تصل الى اعماقها، وأخذت يداه القويتان اللتان تتحركان على ذراعيها تثيران عواطفها الكامنة. احست برغبة خفية في مغازلته . . . لايقاظ البركان النائم في داخله، ولنفخ الرماد عن الجمر! ابعدت وجهها عنه وابقت على تصلب جسمها، بهدف مقاومة الرغبة والاغراء. قالت له متمتمة:

- ماذا كنت ستقترح اذن؟

- التظاهر باننا تصالحنا.

- التظاهر؟

- نعم. يمكننا التظاهر بذلك لفترة قصيرة، لأجل الرجل العجوز الراقد على فراش الموت . . . الذي بذل اقصى جهده لاسعادنا، والذي أحبك وعاملك كابنة له وليس كالحفيدة الوحيدة لشقيقته الكبرى.

تركها بيار فجأة، ثم ابتعد عنها خطوتين وسألها:

- هل اطالبك بالكثير، اذا اقترحت عليك الاقدام على هذا الأمر لأجل ارمون؟ الا يمكنك وضع مشاعرك جانباً لبعض الوقت، وأخذ مشاعره بعين الاعتبار؟

لا، ليست انانية . . . أو على الأقل فهي لا تتعمد التصرف بأنانية! لقد أحبت ارمون الطيب منذ صغرها . . . ارمون الرقيق القلب والأحاسيس الذي علمها الرسم والموسيقى واطلعها الى حد ما على التاريخ الحافل لهذه المنطقة المجيدة. أحست بأن رد فعلها الأول على اقتراح بيار يجب الا يكون سلبياً، وانه يتحتم عليها القبول بصورة فورية. ولكن الخطوة الاندفاعية التي اقدمت عليها قبل حوالى سنة، أدت الى مصاعب ومشاكل كانت بغنى عنها. ترددت في اعطاء الجواب، وراحت تتأمل وجهه علّها تقرأ في ملامحه ما يلقي بعض الضوء على شعوره الحقيقي بالنسبة لهذه المسألة.

لماذا قدّم اليها مثل هذا الاقتراح؟ هل سيتمكن من تحقيق أي انجاز، اذا تظاهرا بالمصالحة والوفاق؟ انه رجل عملي جداً بطبيعته، وعليه فليس من المعقول ابداً ان يكون اقتراحه مجرداً تماماً من الأنانية

أو المصلحة الذاتية. لن يحرمها ارمون من كل شيء... كل ما في الأمر ان الأمور ستعود الى سابق عهدها... سيصبح بيار مجددا شريكها في وراثة شامبورتن، كما كان يشاركها في وقت من الأوقات حياتها... قالت له:

- لا، انك تطلب مني اكثر بكثير مما يمكنني القبول به. لن افعل ذلك يا بيار.

لم تكد تنتهي من جملتها، حتى احست بموجة من الخجل العارم تتفاعل في نفسها وقلبها. كان بيار محقاً في قوله... فها هي الآن ترفض التضحية ولو قليلاً، لاجل رجل طاعن في السن عاملها دائماً بكل محبة وحنان. ازداد خجلها حتى كادت الدماء تنفجر من وجنتيها، فغطت وجهها لحمايته من نظرات التأنيب والازدراء التي تلمع في عينيه السوداوين.

خيم الصمت ثوان طويلة، فاعدت ايلاين نفسها لمواجهة غضبه العارم وكلماته الجارحة. ولكنه اكتفى بهز كتفيه، ثم استدار نحو السيارة قائلاً لها بصوت يوحي باللامبالاة والاحتقار والسخرية:

- لم تعد ثمة حاجة للاستمرار في هذا الحديث. هل تريدين الذهاب الآن الى البيت، ام تفضلين العودة الى القرية؟ يمكنك انتظار مارسيل لاستعادة سيارتك، ثم تفرين مجدداً الى لندن... متخلية مرة اخرى عن مسؤولياتك وواجباتك.

اثارت كلماته مخاوف جديدة في نفسها. اليس محتملاً انه لا يريد عودتها الى القصر؟ هل يأمل في اقدامها على الهرب ثانية، ليخلو الجو له ويصبح سيد شامبورتن دون منازع؟ قالت له بهدوء بالغ:

- اريد الذهاب الى القصر. فقد وعدت ارمون بالمجيء.

هز كتفيه للمرة الثانية بتلك اللامبالاة المزعجة، التي تشير الى انه غير مهتم على الاطلاق بأي من قراراتها، ثم قال لها ببرودة جافة:

- اذن، هيا بنا.

٢- الوفاق الوهمي

لحقت به الى السيارة، وهي لا تزال متضايقة جداً من سرعة وسهولة تقبّله رفضها القاطع والجازم لاقتراحه باجراء مصالحة صورية مؤقتة. وما ان خرجت من الظل حتى شعرت بأن الضوء الساطع يكاد يعمي أبصارها والحرارة القوية تلسع جسمها.

استدار بيار حول السيارة ليفتح باب السائق ويجلس وراء المقود، فقررت ايلاين اغتنام الفرصة والتخلص من جوربيها الطويلين الممزقين. تأكدت من عدم وجود أي سيارة أخرى على الطريق، ثم رفعت فستانها وخلعت الجوارب بخفة ورشاقة.

- هل اصبحت مستعدة الآن للذهاب؟

رفعت رأسها نحوه بحدة وانفعال بالغين، لادراكها انه كان يراقبها، وقالت:

- سأكون مستعدة عندما انتهي من تسريح شعري.

- يمكننا القيام بذلك ونحن في طريقنا الى القصر، اذ يكفينا التأخير الذي حصل حتى الآن. ستظن أمي اننا تعرضنا لحادث، او وقعنا في مشكلة.

تحمست للرد عليه بأنها ليست مسؤولة عن التأخير، وبأنها غير مهتمة اطلاقاً بقلق أمه او عدم قلقها، ولكن نظرة واحدة الى عينيه القاسيتين اقنعتها بعدم جدوى هذه المحاولة. جلست قربه بانزعاج شديد، وبخاصة عندما تذكرت المرات القليلة التي تخاصما فيها خلال

الأشهر الاربعة لوجودهما معاً. قد يتصور الكثيرون ان البريطانية باردة هادئة والفرنسي انفعالي حاد الطباع، ولكن تصرفاتها بدت عكس ذلك تماماً. كان يدعها تصب جام غضبها عليه، دون ازعاج نفسه حتى بالرد عليها. وما ان تنتهي من هجومها، او تتوقف لحظة لالتقاط انفاسها، حتى كان يقول لها كلاماً هادئاً ومنطقياً عن موضوع مختلف. لم يبال مرة بالدفاع عن نفسه او بمهاجمتها، وكان يجعلها تشعر دائماً بأنها ارهقت اعصابها وصوتها. . . دون فائدة. وعندما ادركت انها غير قادرة على اغضابه، او حتى على جرّه الى اي مشادة كلامية، بدأت تخاف منه الى حد ما.

أخرجت مرآة صغيرة من حقيبة اليد الصغيرة، فهالها منظرها الكئيب المرعب. لا، لن تسمح لمارجريت سان فيران برؤيتها على هذا النحو المزعج! تناست انفعالها وارتباكها، وركزت كافة اهتمامها على تجميل نفسها بالقدر الذي تسمح به المستحضرات القليلة الموجودة معها.

نزلت من السيارة في باحة القصر، وهي تشعر ببعض الارتياح النفسي والمعنوي. فها هي في كامل اناقتها وزينتها، وها هي رائحة الورود العطرة تعبق في اجواء القصر الجميل. . . الذي تحبه منذ طفولتها. فتحت بوابة القصر على مصراعيها، وخرج منها رجل اشيب الشعر تغطي نصف وجهه الذي يطفح صحة وعافية ابتسامة عريضة صادقة. اقترب منها جاك وهو كبير الخدم في قصر شامبورتين منذ سنوات عديدة، ورحب بها قائلاً:

ـ اسعد الله اوقاتك يا سيدتي، وأهلاً وسهلاً بك. كنا بدأنا نظن بأن شيئاً أعاق وصولك. دعني احمل الحقيبة عنك، يا سيد بيار. سآخذها الى غرفتك، يا سيدتي. السيدة سان فيران موجودة في قاعة الاستقبال، وأبلغتني بأنها تود مقابلتك فور وصولك.

دخلت القصر، فأحست كأنها تدخل عالماً آخر. . . وكأنما هذه الجدران التي تحمي القصر من الحرارة الشديدة، تحميه ايضا من

ضجيج العصر الحديث وضوضائه. شقت طريقها بسهولة نحو قاعة الاستقبال، وهي تشعر بأن بيار وراءها.

لدى دخولها القاعة الكبيرة، استدارت نحوها السيدة المسنّة الهادئة التي كانت واقفة امام احدى النوافذ. . . وفتحت ذراعيها قائلة:

ـ ايلاين، حبيبتي، اهلاً بك.

طوقتها الذراعان النحيلتان، فأحست ايلاين بالدموع تحرق عينيها. هذا هو احد الأمور الذي لم يتغير او يتبدل ابداً. . . طريقة ترحيب مارجريت بها، بحرارة واخلاص. ابعدتها السيدة المسنّة عنها قليلاً لتتمكن من تأملها بعينيها الزرقاوين الجميلتين، اللتين أورثتهما لابنها، ثم قالت لها بلهفة وهي لا تزال ممسكة بكتفيها:

ـ كم أنت نحيلة وشاحبة الوجه، وكم تبدين متعبة ومرهقة ايضاً! ولكننا سنغير كل هذه الأشياء قريباً بطعامنا الجيد وطبيعتنا الجميلة الدافئة. لقد حان وقت عودتك الى البيت، يا عزيزتي، لتنشقي الهواء النقي وتتمتعي بحرارة الشمس. اشتقنا لك، يا ايلاين.

ثم نظرت الى ابنها الواقف وراء زوجته، وسألته بهدوء:

ـ هل تحدثت معها، يا بيار؟

اجابها ببرودة وايجاز:

ـ نعم. تحدثنا.

تطلعت اليه والى ايلاين مستفسرة، ثم سألته:

ـ والنتيجة؟

ـ النتيجة انها لا تزال عنيدة ومعاكسة كما نعرفها.

ثم استدار نحو الباب قائلاً:

ـ اعذراني الآن، لأني مضطر للذهاب.

نادته أمه بصوت هادىء:

ـ انتظر يا بيار. يريد ارمون رؤيتكما انت وايلاين معاً في وقت لاحق. سوف يستيقظ على الأرجح حوالى الخامسة والنصف.

فأرجوك ان تحضر الى غرفته في ذلك الموعد.

هز رأسه موافقاً، وغادر القاعة. تطلعت مارجريت حولها، ثم قالت لايلاين وهي تشير الى قطع الأثاث الأنيقة النادرة:

- الا تعتقدين انه من الأفضل لنا شرب الشاي في مكان لا يغلب عليه طابع الجدية والرسميات تهله القاعة؟ هيا بنا الى غرفة المكتبة.

سارتا في ممر طويل باتجاه قاعة الدخول، ثم تحولتا نحو غرفة أصغر حجماً تضم مجموعة كبيرة من الكتب القيمة وعدداً لا بأس به من القطع والتحف الرائعة التي جمعها ارمون سان فيران خلال جولاته الخارجية المتعددة. انها الغرفة التي كانت ايلاين تفضلها دائماً، بسبب الجو العائلي الدافىء الذي يخيم عليها. كل شيء يعجبها هنا... المقاعد الوثيرة المريحة، الكتب، الموسيقى، واللوحات الفنية التي تغطي معظم الجدران... والتي رسمها الفنان الموهوب والمرهف الأحاسيس ارمون سان فيران في شبابه. تفاعلت في نفسها مشاعر العودة الى... البيت، على الرغم من تناقضها مع مشاعر الازدراء التي تكنّها لبيار.

جلست في نفس المكان الذي كانت تختاره دائماً، وراحت تتأمل الطاولة الخشبية الرائعة التي احضرها ارمون قبل سنوات عديدة من الهند. وما هي الا لحظات وجيزة، حتى دخلت خادمة شابة ووضعت صينية الشاي على تلك الطاولة. قالت مارجريت للخادمة، التي ابتسمت لايلاين بتهذيب واحترام:

- ماري، هذه هي السيدة دوروشيه. اذهبي الآن الى الغرفة التي ستنام فيها، واخرجي ثيابها من الحقيبة ثم علقيها في خزانة الملابس.

- سمعاً وطاعة، يا سيدتي.

فتحت مارجريت غطاء الابريق الفضي الأنيق وهزت رأسها بشيء من الحدة قائلة:

- آمل في ان يكون الماء حاراً بشكل كاف. لم يعد بامكاننا هذه الأيام الحصول على خدم يبقون معنا لفترة طويلة. عيّنت ماري لمجرد

انها ابنة احد العمال. فهي ليست ذكية ابداً، ولديها ذاكرة ضعيفة للغاية. لم نشرب الشاي منذ ذهابك، ولكنني أعلم انك تحبينه في مثل هذا الوقت من النهار... تماماً كجدتك. هل أضع لك، كالعادة، قليلاً من الحليب؟

- نعم، شكراً.

صبت لها الشاي واضافت اليه الكمية المطلوبة من الحليب، ثم سألتها وهي تعطيها الفنجان:

- اخبريني الآن عما كنت تفعلين في لندن، طوال هذه الأشهر التسعة.

- أفضّل ان تخبريني انت عن الخال ارمون. اخبرني بيار ان حالته تحسنت بعض الشيء.

- نعم، هذا صحيح. فهو أقل كآبة وحزناً عما كان عليه خلال الأشهر القليلة الماضية. آه لو رأيت كيف انفرجت أساريره ولمعت عيناه بهجة وارتياحاً، عندما قرأت له رسالتك عن موعد مجيئك واحتمال مصالحتك مع بيار. كان ذلك النبأ السار كافياً جداً لرفع معنوياته، وتحسين أوضاعه بشكل ملفت للنظر. لقد قلق كثيراً لأجلك، يا ايلاين. فهو يشعر بأنه كان من واجبه التدخل لتأخير زواجك بعض الشيء، كي يعتاد كل منكما على الآخر. ويشعر ايضاً بأنه لم يساعدك بما فيه الكفاية، للتأقلم مع طبيعة الحياة في الريف. باختصار، يعتبر ارمون نفسه مسؤولاً الى حد كبير عن مغادرتك شامبورتن.

احتجت ايلاين على ذلك بالقول:

- لا! يجب ألا يقلق أبداً، فالأمر لم يكن متعلقاً به!

- ستقولين له ذلك بنفسك. وعندما يكون هذا التأكيد صادراً عنك شخصياً، سيشعر بمزيد من الراحة النفسية. سنذهب اليه بعد قليل ومعنا بيار، ليحس بان الماضي مضى والأمور عادت الى طبيعتها.

وجهت اليها مارجريت نظرة فاحصة، ثم مضت الى القول:
- لا تخيبي أملي، يا عزيزتي... ارجوك! فسعادته تعتمد كثيراً
على تأكده من انكما ستعيشان هنا بعد وفاته بسعادة وهناء، مع
بعضكما... ومع أولادكما. ثم... أليس من العدل والانصاف
ايضا ان يموت انسان طيب حنون مثل ارمون، قرير العين مرتاح
البال؟

- نعم... طبعاً. ولكن بيار وأنا...
- أوه، اعرف انكما تواجهان بعض المشاكل. ولكن، هل ثمة
زواج لا يواجه عدداً من المصاعب والعراقيل في سنواته الأولى...
وبخاصة عندما يكون الزوجان من بيئتين وطبيعتين مختلفتين مثلكما؟
أنا خبرت جزءاً من هذه المشكلة بنفسي. فزوجي الأول جان، كان
فلاحاً ملتصقاً بالأرض والتربة. كان رجلا بسيطا في ذوقه وعاداته،
وقوياً كالصخرة التي تحمل عائلته اسمها، في حين كنت أنا من الطبقة
المتوسطة في أعلى درجاتها الاجتماعية. كان والدي استاذاً ناجحاً،
ووالدتي ابنة عائلة من التجار المرموقين. هل تريدين مزيداً من
الشاي؟ قطعة حلوى؟ هيا، هيا، ايتها العزيزة، يجب زيادة وزنك
قليلا. اعتقد انك كنت تتضورين جوعاً في لندن.
وضعت ايلاين فنجانها على الطاولة هي تقول:
- لا، شكراً. ايتها السيدة... الخالة مارجريت... اوه، لم
أعرف أبداً كيف يتحتم عليّ مناداتك.
ابتسمت السيدة المسنة، وقالت:
- أفضل كلمة خالتي أكثر من أي شيء آخر. فمنذ كانت جدتك
تحضرك الى هنا، وانا أشعر نحوك كخالة حقيقية وليس كزوجة خال
والدك. ماذا كنت تودين قوله، ايتها العزيزة؟
- ارتكبت خطأ كبيراً، يا... خالتي مارجريت، عندما قرأت
رسالتي للخال ارمون.
- حقاً؟ هل اخطأت في قراءة موعد وصولك الى المطار؟ هل

وصلت الطائرة بعد الموعد الذي كنت أتصوره؟ ألهذا السبب
تأخرتما؟ اوه، كم شعرت بالقلق عليكما! يا للأفكار السوداء التي
ازعجتني وأرعبتني! تصورت انكما تعرضتما لحادث بسبب تهور بيار في
القيادة، وانك أصبت ولم يعد بامكانك الحضور الى هنا! لا شك في
ان ذلك كان سيقضي بالتأكيد على ارمون، ويودي بحياته!
- لا، لم يكن التأخير نتيجة ذلك. فقد وصلت الطائرة في موعدها
المقرر، ولكني لم أجد أحداً بانتظاري بسبب تأخر بيار بعض الوقت.
استأجرت سيارة وقدتها بنفسي، ولم يلحق بي بيار الا قبل القرية
ببضعة كيلومترات. الموضوع هو...
- أين هي سيارتك اذن؟ شاهدتك من النافذة العلوية تنزلين من
سيارته.
- تعرضت لحادث بسيط... انزلقت بي السيارة عن الطريق
ووقعت في احدى القنوات الجافة. ولكن...
- آه، كنت أشعر بشيء ما يزعجني! السرعة، أليس كذلك؟ لا،
لا تحاولي نفي التهمة، فأنت تحبين السرعة. هذا هو اذن سبب
التأخير؟
- لا... ! توقفنا قليلا قرب الغابة للتحدث و...
وقفت مارجريت، وهي تقاطعها للمرة الثالثة قائلة بتهذيبها
المعتاد:
- اوه، نعم، فلديكما الكثير من الأمور التي تريدان بحثها بعد هذه
الأشهر الطويلة من الفراق. سأخبر ارمون بوصولك، فيما تذهبين
أنت الى غرفتك لغسل وجهك واستبدال ثيابك. خصصنا لك
الجناح الموجود في برج القصر، في حين ان ارمون موجود بالطبع في
الغرفة الوسطى للجناح الرئيسي. سأقابلك هناك خلال نصف
ساعة. الى اللقاء، ايتها العزيزة.
اعترفت ايلاين لنفسها بان براعة مارجريت في المناورة، منعتها
من الحديث عن استحالة قيام مصالحة مع ابنها. أرادت ارضاء

زوجها المريض واسعاده، فكذبت عليه عندما قالت له ان الزوجين الشابين سوف يعودان الى بعضهما. وها هي الآن تبذل اقصى جهدها لتحويل الكذب الى حقيقة، او على الأقل لاظهاره كحقيقة.

توجهت الى غرفتها، وهي تشعر مرة أخرى بالخجل العميق من جراء تصرفاتها التي قد تنعكس سلباً على الرجل العجوز الطيب. فرفضها الساخط والقاطع للتظاهر بالوفاق مع بيار، لاراحة بال ارمون في أيامه الأخيرة، يدل على الخبث واللامسؤولية... فيما لو جرت مقارنته مع اخلاص مارجريت المتفاني تجاه زوجها واستعدادها للقيام بأي شيء، لاسعاده وادخال البهجة الى قلبه الكبير. أين الضرر الذي سيلحق بها، اذا تظاهرت امام ارمون بأنها اتفقت مع بيار؟ لماذا تزعج نفسها اذن، بالاصرار على ان مارجريت ارتكبت خطأ فادحاً؟ لماذا لا تماشي هذه الزوجة الوفية في محاولاتها الحثيثة والجادة، لمنح ارمون بعض السرور والفرح؟ ستفعل ذلك... وستثبت لبيار بصورة نهائية انها ليست أنانية او جبانة.

فتحت احد الأبواب الثلاثة لخزانة الحائط الضخمة، فتبين لها ان الخادمة ماري قامت بعملها على احسن وجه. دفعها حب الاستطلاع الى فتح البابين الآخرين، فضايقها كثيراً وجود ملابس واحذية تخص بيار. لا، لن تسمح للتظاهر بالوفاق بالوصول الى درجة مشاركته غرفة نوم واحدة! سيكون الأمر محفوفاً بالمخاطر، وعليه فانها ستطالبه بعد مقابلتهما ارمون بالانتقال الى حجرة أخرى.

خلعت فستانها وعلّقته في خزانة الملابس، ثم أخذت العلبة الكبيرة التي تضم مستحضرات التجميل وفتحت باباً داخلياً يؤدي الى الحمام. وما ان عادت الى الغرفة، حتى فوجئت بالرجل الذي تريد الانفصال عنه يخلع قميصه ويرميه في السلة المخصصة للثياب الوسخة. ولما استدار نحو باب الحمام وشاهدها اصيب بدهشة قوية. ولكنه تمكن من السيطرة على اعصابه بسرعة، وقال لها فيما كان يتفحصها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها:

- اوه، يا لها من مفاجأة... ومفاجأة سارة جداً بالتأكيد! لم أكن أتوقع حضورك الى هذه الغرفة الا بعد بضع دقائق.

تأملت صدره العريض وساعديه القويين وعضلاته المفتولة، بالاضافة الى سمرة بشرته البرونزية الناجمة عن العمل ساعات طويلة في الحقول والبساتين. أثارها مظهره الجذاب، كما أثاره على ما يبدو وقوفها امامه بنصف ثيابها. ارغمت نفسها على التطلع نحو النافذة، لكي تتجنب النظر الى جاذبيته ووسامته المغرية، وقالت له:

- طلبت مني أمك الحضور الى هنا... جاك احضر حقيبتي الى هذه الغرفة... وماري علقت ثيابي في الخزانة. لم... لم أعرف... انك لا تزال تنام... هنا.

تضايقت ايلاين من نفسها ومن هذا الدفاع المتردد عن حقوقها، فاستشاطت غضباً... وبخاصة عندما شاهدت ابتسامته الهازئة. ضربت السجادة الخضراء الناعمة بقدمها، وأضافت قائلة بحدة بالغة:

- نعم، نعم، أنا لا ارغب ابداً في مشاطرة أي غرفة معك.

ازدادت ابتسامته اتساعاً، وقال لها ببرودة وهو يدخل الحمام:

- اقترح عليك اذن الاتصال مجدداً بوالدتي، علّها تعدّ لك غرفة اخرى.

ظلت ايلاين واقفة في مكانها بعض الوقت، وقد أدركت بأسف ان أي اتصال من هذا القبيل بمارجريت سيعني اعترافاً واضحاً من جانبها بعدم قيام مصالحة حقيقية مع بيار. وحتى اذا اتفقت ومارجريت على ذلك، فسوف يكتشف العاملون في القصر انها لا تزال منفصلة عن بيار... وستصل هذه المعلومات عاجلاً او آجلاً الى ارمون، فتفشل كافة المحاولات الطيبة التي تبذلها السيدة المسنّة لاسعاد زوجها المحتضر.

ارتدت ثياباً جديدة وسرحت شعرها الطويل، ثم انحنت امام المرآة لوضع اللمسات الأخيرة على شفتيها وعينيها. عاد بيار في تلك

اللحظة وتوجه الى الجزء الخاص به من الخزانة الكبيرة، قائلا لها بلهجة مرحة:

- اوه، لا تزالين هنا؟

ترددت قليلا، ثم قالت له بصوت منخفض:

- بيار... لا بد لي من ابلاغك بأنني... غيرت رأيي.

- مرة أخرى؟ لماذا لا تستقرين على رأي معين ومحدد، يا صغيرتي؟ هل هذا القرار المفاجىء ناجم عن تبدل في مشاعرك تجاهي؟

لا، لن تسمح له بإثارة اعصابها... وتعذيبها. اجابته بسرعة:

- لا، لا! كل ما في الأمر، انني قررت الموافقة على اقتراحك القاضي باقامة مصالحة ظاهرية.

ارتدى قميصه، ثم ابتسم بخبث قائلا:

- يبدو ان احتمال حرمانك من ارثه ذو تأثير قوي على قراراتك وتصرفاتك!

- لا، ليس لهذا الأمر اي علاقة اطلاقاً بقراري. ادركت بعد تحدثي مع والدتك، ان التظاهر هو الحل الأفضل. تأكد، يا بيار، اني افعل ذلك لأجل الخال ارمون دون سواه... وليس لأي سبب آخر. هل سمعت؟ هل فهمت؟

اجابها ببرودة:

- نعم، سمعت وفهمت.

ثم ابتسم ثانية، ومضى الى القول:

- هذا يعني انك ستمضين هنا فترة أطول مما كنت تتوقعين.

فوجئت ايلاين بتلك الفكرة، التي لم ترد على بالها قبل الآن. اتخذت قراراً هاماً كهذا بعفويتها وتسرعها المعتادين، دون التفكير بالمضاعفات او العواقب. لا بد لها الآن من الاجابة بأسلوب ذكي، ينم عن الثقة بالنفس، كي لا تتعرض لاستجواب يؤلم قلبها ويجرح كرامتها. قالت له بهدوء:

- لن ابقى هنا الا بقدر ما تدعو اليه الحاجة.

- قد لا يموت الرجل قبل أسابيع، وربما أشهر. فوجودك هنا واعتقاده بأننا لم نعد منفصلين، سيمنحانه بالتأكيد دافعاً جديداً ويطيلان عمره. آمل في ان تدركي ذلك وتكوني مستعدة لدفع الثمن المترتب على هذا الأمر.

- أي ثمن؟

- ثمن التظاهر طبعاً بأنك زوجتي المحبة العاشقة.

كيف يمكنها التحدث معه برويّة وهدوء أعصاب عن موضوع حساس كعلاقتهما الزوجية، وهي معه الآن في هذه الغرفة بالذات التي شهدت اجمل ساعات حياتها وأسعدها؟ كل حركة بسيطة يقوم بها... كل نظرة يوجهها اليها... وكل كلمة يقولها لها... تجذب انتباهها الى رجولته القوية وجاذبيته المذهلة وسحره الأخاذ. قالت له بحزم، وهي تبعد وجهها عنه مجدداً:

- لن يكون التظاهر ضرورياً الا امام الخال ارمون.

- لا أوافقك على هذا الرأي اطلاقاً. جاك رجل محب للاستطلاع بشكل ملفت للنظر، وسيخبر زوجته عن كل شيء نقوم به... او لا نقوم به. والخادمة الصبية ماري ليست غبية كما تبدو، ووالدها يعمل معنا في الحقول. اذا أردنا ألا يشتبه ارمون بأي أمر غير طبيعي، فما علينا الا التصرف بحذر شديد. هل تعتقدين انك قادرة على تحمّل مصاعب التظاهر كزوجة مخلصة مطيعة، لمدة اسبوع مثلا او ربما لشهر؟ قد يكون من واجبي تحذيرك مسبقاً، بأنك لن تكوني قادرة على مهاجمتي او الكشف عن حقيقة شعورك تجاهي الا في هذه الغرفة.

ثم ضحك بنعومة ماكرة، وأضاف قائلا:

- أوه، نسيت انك لا تريدين الاقامة معي في غرفة نوم واحدة. ولكنك تخلقين مشكلة كبيرة، لمجرد رغبتك في النوم على انفراد. فلو كنت أقل طهارة وعنادا، لتمكنا من الاستفادة كثيراً من مصالحتنا المزعومة والتمتع بها الى أقصى الحدود.

طوق خصرها بذراعه وادارها نحوه، ثم ركز نظراته على وجهه وأحنى رأسه ليعانقها. رفعت يدها لتصفعه، ولكنها لم تقدر على تحقيق هدفها. فقد أمسك بمعصمها وأنزل يدها، قائلاً:

- رباه، يا لهذه العصبية! ستضطرين للسيطرة عليها والحد منها، اذا كنا سننجح في ادعائنا وتظاهرنا.

- عليك اذن التوقف عن تعذيبي وايلامي... وايجاد سرير آخر لتنام عليه!

حررت يدها من قبضته وهمت بالخروج من الغرفة، فاستوقفها مستفسراً:

- ولماذا أريد تعذيبك، يا ايلاين؟ ما هو الغرض الذي سيحققه هذا الأمر؟

استدارت نحوه والشرر يتطاير من عينيها وقالت له متهمة:

- انك تأمل في ارهابي الى درجة تضطرني الى مغادرة شامبورتن. تريدني ان أذهب عوضاً عن المضي في هذا الادعاء، كي يحرمني الخال ارمون من الارث. ألم تخبرني بنفسك ان المصالحة لا تخدم اغراضك وأهدافك؟ ولكني باقية هنا، يا بيار دوروشيه. سأبقى لبضعة أيام، ولكني... لن... لن اتمكن من البقاء معك في سرير واحد. أوه، بيار، حاول ان تفهم السبب. لا يمكنني... مع شخص لا أحبه.

حدق بها صامتاً لبعض الوقت، فتكوّن لديها انطباع بأن لونه شحب وعينيه اشتعلتا غضباً وحنقاً. ولكنه هز كتفيه وذهب لاغلاق باب الحمام، الذي تركه مفتوحاً لدى خروجه منه قبل قليل. وعندما عاد الى ناحيتها، تمتم قائلاً:

- لديك بعض الأفكار الغريبة حقاً! على اي حال، يمكنك الانفراد بهذه الغرفة. سأنام في غرفة الحضانة

- غرفة الحضانة؟

- ألا تذكرينها؟ انها الحجرة الثانية في هذا الجناح، التي كنت

تنامين فيها كطفلة... والتي كنا سنخصصها قريباً لطفلنا، لو لم تهربي في العام الماضي. هذا هو الحل الأفضل، الذي يوفر علينا أي تعليق او انتقاد نحن بغنى عنهما. هل يناسبك ذلك؟

هزت رأسها بذهول وغباء، وحولت وجهها عنه مرة أخرى كيلا يشاهد ملامحها ونظراتها الزائغة. آلمتها ملاحظته العابرة عن... طفلها... اكثر من أي شيء آخر. احدثت تلك الجملة البسيطة العادية شرخاً كبيراً في الأسوار القوية التي بنتها حول نفسها لصد هجماته المحتملة... وابقاء عواطفها داخل قلاع محصنة كيلا تضعف او تنهار. وفجأة، سمعته يقول معلقاً على موافقتها الصامتة:

- حسناً، لقد سوّيت المشكلة. هيا بنا اذن لمقابلة خالك، وحاولي التظاهر بأنك لست غاضبة مني الى هذه الدرجة... يا صغيرتي. اذا لم تفعلي ذلك، فسوف يكتشف الحقيقة. فكري جيداً بهدف هذا التظاهر المؤقت! اذا كان تمثيلك جيداً، فلن يحرمك من الارث. ألا تساعدك هذه الفكرة على اراحة اعصابك بعض الشيء؟

كان ارمون سان فيران مستلقياً على سرير ضخم، يواجه نافذتين طويلتين تشرفان على النهر. وقفت ايلاين قرب السرير، فتأثرت لأنها لم تشاهد في حياتها شخصاً مريضاً ومحتضراً الى هذه الدرجة. فعندما مرضت جدتها ووضعت في غرفة العناية الفائقة، التي لم تغادرها الا جثة هامدة، قرر عمها تشارلز عدم السماح لها بزيارة جدتها.

أحست بصدمة عنيفة، وهي ترى امامها بقايا الرجل الطيب الذي تحبه كثيراً. قبّلته على جبينه بشفتين مرتعشتين، وقالت له انها مشتاقة جداً لرؤيته. رفع ذراعه الضعيفة بصعوبة بالغة، ليطوق عنقها ويضمها الى صدره الذي برزت عظامه. أكدت له انه غير مسؤول بتاتاً عن مغادرتها شامبورتن، فتطلع نحو وجهها بعينين ضعيفتين مرهقتين وقال لها بصوت هامس مرتجف:

- انت الآن هنا وستبقين مع بيار. لا أفهم هذه الزيجات العصرية، ولا أوافق عليها. فمن أقل واجبات الزوجين البقاء معاً.

توقف لحظة لالتقاط أنفاسه، ثم مضى الى القول:

- لدي رغبة قوية في سماعك تقولين انك ستبقين معه ولن تترك
أبداً.

تململت ايلاين في مكانها ونظرت الى مارجريت، الموجودة على الجانب الآخر من السرير. شاهدت في عينيها نظرات الاستغا والمناشدة، وقرأت في ملامح وجهها نداء توسّل يطالبها بالقبول قالت لخالها بصوت منخفض:

- سأبقى مع بيار، يا خالي، ولن أهرب مرة أخرى.

احست فوراً بالوقع الطيب لكلماتها القليلة، اذ لمعت عيناه المرهقتان ببريق السرور والارتياح وضغط على يدها بما تبقى له من عزم وقوة... ثم بدأ يحدثها بصوته المتقطع المتهدج عن بعض ذكرياته. وفيما كانت تصغي اليه بتأثر شديد، لاحظت اختفاء بيار من الغرفة ووقوف مارجريت امام احدى النافذتين. ولم تمض الا فترة قصيرة، حتى شعر ارمون بالارهاق نتيجة الانفعال العاطفي والاسترسال في الحديث عن الماضي. اغمض عينيه لبضع لحظات على أمل العودة الى الكلام، ولكن المرض والتقدم في السن جعلاه يغط على الفور في نوم عميق. سحبت ايلاين يدها من يده برفق وهدوء وغادرت الغرفة مع مارجريت، تاركتين الرجل العجوز برعاية ممرضة تسهر على راحته طوال الليل.

انضم اليهما بيار في قاعة الطعام، حيث تناولوا طبقاً شهياً من أجود المأكولات المحلية... قدم لهم جاك على أثره بعض الحلويات التي تستهوي ايلاين الى درجة كبيرة. وعندما انتهى الجميع من تناول طعامهم، اعتذرت مارجريت من ابنها وزوجته بحجة انها متعبة جداً وعليها الذهاب الى فراشها... لتكون قريبة من ارمون. ثم قالت لايلاين:

- اخشى ان يؤدي سروره وتأثره بحضورك، الى عدم تمكنه هذه الليلة من النوم بهدوء وارتياح.

لاحظت الشابة البريطانية مدى تأثير التعب والقلق على وجه مارجريت وعينيها، وهو أمر لم تلاحظه قط قبل بضعة أشهر. قالت لها بصدق واخلاص:

- هل يمكنني المساعدة بشيء؟

ضغطت بحنان على كتفها، وقالت:

- لا، ليس هذه الليلة، يا حبيبتي. انت ايضا بحاجة الى الراحة، بعد هذا اليوم الطويل المرهق. والآن، تصبحان على خير. سيقدم لكما جاك القهوة في غرفة المكتبة.

تذكرت ايلاين في تلك اللحظة انه يتحتم عليها الاتصال بمديرها جيرالد مورتون، لتبلغه عن عزمها على اطالة اجازتها بعض الوقت. اوه، كم حثها في الأسابيع الماضية على وضع حد لزواجها! كم من مرة حاول اقناعها بالطلاق من بيار، فيما اذا رغبت يوماً... في الزواج من غيره! هل يحبها جيرالد ويريد الزواج منها؟ سألت بيار بهدوء:

- هل يمكنني استخدام الهاتف؟

- طبعاً، طبعاً.

- و... وعدت شخصاً ما في لندن... بالاتصال هذه الليلة... للابلاغ عن وصولي.

- شخصاً ما؟ عمك تشارلز ام زوجته جيني؟ هل تحفظين رقمهما؟ اذا كنت لا تعرفين الرقم غيباً، فهو مسجل في الدليل الصغير قرب الهاتف.

لا، لا يمكنها التحدث مع جيرالد امام بيار. سألته بشيء من التردد:

- هل يوجد جهاز آخر يمكنني استخدامه؟

- واحد في غرفة والدتي، وآخر في المطبخ. ولكن، ارجوك الا تخجلي ابداً من استخدام الجهاز الموجود هنا.

صبت لنفسها فنجاناً ثانياً من القهوة اللذيذة، وهي تتمنى لو انه

يلاحظ رغبتها في اجراء المكالمة الهاتفية على انفراد. سألته عما اذا كان يريد فنجاناً آخر، فأغلق كتابه ووضعه جانباً ثم قال:

- لا، شكراً. اوه، كم يذكّرني وجودنا معاً الآن على هذا الشكل بالأيام السعيدة!

لم تعلق على كلامه وظلت صامتة، ففتح الكتاب مجدداً وعاد الى القراءة. رفع رأسه بعد بضع دقائق، وسألها بأسلوب بارد ازعجها وأثار غضبها:

- هل أجريت مكالمتك؟

- لا، وأنت تعرف ذلك! كيف يمكنني اجراء أي مكالمة، وأنت هنا تستمع الى كل كلمة أقولها؟

- أوه! اذن، فالمكالمة ليست مع تشارلز او جيني بل مع... صديق! هل هو رجل تقيمين معه علاقة عاطفية، مع انك لا تزالين زوجة رجل آخر؟

شعرت بوخز الاهانة القاسية، فهبت واقفة وصرخت به:

- انا... انا لست مثلك أبداً، يا بيار دوروشيه! انا لا أقيم علاقات عاطفية مع اشخاص آخرين طالما اني متزوجة... ولو من رجل لا أحبه! وبما انك لست مهذباً بما فيه الكفاية لتغادر الغرفة اثناء الاتصال الذي سأجريه، فسوف استعيض عن المكالمة برسالة اكتبها هذه الليلة. تصبح على خير!

خرجت من غرفة المكتبة وأغلقت الباب وراءها بعنف بالغ، بحيث ظلت تسمع لبضع لحظات صداه يتردد في الممر الذي قطعته بسرعة لتصعد الى غرفة النوم. اخرجت جميع ملابسه واحذيته من الخزانة، وبدأت تنقلها الى... غرفة الحضانة. فتحت باب الحجرة التي اختارها بيار لنفسه، فدهشت لصغر حجم السرير. كيف يمكن لرجل طويل القامة مثله، ان ينام على سرير اطفال كهذا؟! تضايقت قليلاً، ولكن همّها الاول هو الابتعاد عنه قدر الامكان... وخاصة اثناء الليل.

قامت بأربع رحلات متتالية، فنقلت كافة ثيابه وأمتعته الى الغرفة الصغيرة، ثم جلست في حجرتها لتكتب رسالة الى جيرالد. ولكنها توقفت عن الكتابة بعد عشر دقائق، لأنها لا تزال غاضبة بسبب تصرفات بيار معها. كيف يمكنها اعداد جمل عادية هادئة لتوضيح موقفها الحالي، والأسباب التي تضطرها لاطالة أمد زيارتها؟ دب النعاس في عينيها، فخلعت ثيابها واطفأت النور... ونامت بصورة شبه فورية...

٣ - الطريق طويلة وصعبة

استيقظت ايلاين في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وفي جناح البرج بالذات . . . وذلك بمجرد سماعها هديل الحمام. فتأكد لها قبل فتح عينيها انها موجودة في شامبورتن . . .

خدعها عقلها في تلك اللحظة الوجيزة من السرور والابتهاج، فشعرت وكأن فترة انفصالها عن بيار لمدة تسعة أشهر كاملة لم تحدث اطلاقاً . . . واقنعت نفسها بأنها متزوجة منذ اربعة اشهر فقط ولا تزال غارقة في الحب حتى أذنيها. ابتسمت بارتياح وسعادة، ثم حركت رجليها ومدت ذراعها لتطوق . . . حبيبها!

انتشلتها ملامسة الفراغ البارد من أحلام اليقظة، واعادتها الى عالم الواقعية . . . والمرارة. فتحت عينيها وتطلعت نحو الجزء الآخر من الوسادة، فادركت انها وحدها . . . وكانت وحدها طوال الليل!

اغمضت عينيها الحزينتين بسرعة، للتخفيف من الآلام الناجمة عن خيبة الأمل العنيفة التي عصفت بها. كيف يمكنها تحمّل هذا العذاب اياماً أو ربما اسابيع؟ هل ستكون قادرة على السكن مع بيار تحت سقف واحد، وتظل متحفظة عاطفياً تجاهه؟ كيف ستستيقظ في هذا السرير كل صباح، دون أن تتذكر عشرات المرات الأخرى التي كانت تجده فيها مستلقياً قربها بدفء وارتياح . . . وهي سعيدة بالسجن الذي يمثله بحبها له؟

لماذا كل هذا الاهتمام والمبالاة به؟ لماذا تشعر كلما رأته أو سمعته،

بالحزن والأسى؟ الأن الحب الذي أقسما على ابقائه حياً ومشتعلاً حتى يفرق الموت بينهما، لم يكن على ما يبدو موجوداً منذ البداية؟

اذا احبها فعلاً، فمن المؤكد انه لم يكن ليقدم على الخيانة الزوجية التي تدعي سولانج حصولها. لو انه يحبها حقاً، لما كان امضى الليل مع سولانج في شقتها مرات عديدة . . . كلما كان مفترضاً به القيام برحلة عمل الى المنطقة التي تعيش فيها!

برزت صورة سولانج فجأة على شاشة خيالها وتفكيرها، فشاهدت ايلاين تلك المرأة الطويلة القامة النحيلة الجسم تنظر اليها بعينيها السوداوين الكبيرتين . . . وتهز رأسها. سولانج فنانة في الثالثة والثلاثين من عمرها، وتعرف بيار منذ سن المراهقة. قالت لها مرة انها كانت عائدة من احدى جزر البحر الكاريبي حيث امضت سنة كاملة في اعداد اللوحات الفنية، حين قررت زيارة شامبورتن لرؤية . . . حبيبها القديم.

وتذكرت ايلاين ان تلك الزيارة تمت بعد مرور اسبوع واحد على زواجهما، وقد بدا ان سولانج فوجئت بالأمر. اعترفت لها آنذاك بأنها لا تميل كثيراً الى فكرة الزواج، وتفضل البقاء حرة طليقة . . . مضيفة بغنج ودلال:

- لماذا يزعج أي انسان نفسه بالزواج، ان لم يكن ذلك بهدف الأولاد . . . أو تحقيق مكاسب مادية؟

تضايقت ايلاين الى حد كبير في ذلك الوقت، ولكنها نسيت سولانج وافكارها الغريبة بمجرد مرور بضعة ايام على مغادرتها شامبورتن. كانت سعيدة جداً مع زوجها وحبيبها، بحيث انها لم تهتم اطلاقاً بما حدث معه قبل زواجهما . . . ولم يخطر ببالها ابداً انه يستغل المناسبات القليلة خارج شامبورتن لأهداف لا علاقة لها بعمله.

ذهبت ايلاين في أحد ايام الخريف الباردة الى بلدة انجولام، لشراء بعض الحاجيات المنزلية الضرورية. انهمر المطر فجأة،

فدخلت متحف البلدة الذي كان في الماضي قصر الأسقف. . . والتقت سولانج. حيّتها الفنانة الفرنسية بمودة ظاهرة، وعرضت عليها القيام بدور الدليل لتشرح لها عن المنحوتات الأفريقية التي كانت معروضة هناك. وبعد الجولة القصيرة داخل المتحف، دعتها لزيارة محترفها القريب. . . فلبّت ايلاين الدعوة دون تردد. تكررت زيارات المحترف الجميل مرات عديدة خلال الأسابيع الثلاثة التالية. . .

تململت ايلاين في سريرها وهي تتذكر الزيارات، وتمنت لو انها لم تكن بريئة وغبية الى تلك الدرجة. فلو لم تتكرر المقابلات، التي أدت الأحاديث خلالها الى اثارة شكوكها بالنسبة لبيار، لما كانت الأمور ساءت على ذلك النحو وأرغمتها على التخلي عن زوجها. فبغض النظر عن الكيفية التي كانت تبدأ فيها احاديثهما العامة في ذلك المحترف اللعين، الا انها كانت تتحول دائماً الى بيار. . . الى مدى تعلق سولانج به أثناء فترتيْ المراهقة والشباب. . . الى الاجازات الاسبوعية المتعددة التي كانا يمضيانها معاً. . . والى التلميحات الواضحة طوال الوقت بأن العلاقة بينهما لم تكن بريئة أو سطحية. وتذكرت ايلاين بانزعاج بالغ حواراً معيناً، اثار اعصابها وقضّ مضجعها. قالت لها سولانج، وهي تهز كتفيها:

- اوه، انا اعرف تماماً انني لم اكن الفتاة الوحيدة في حياته. . . ولكنه كان يعود الي دائماً. وحتى مع زواجه الآن. . .

وضعت يدها فجأة على فمها، ثم اضافت بصوت منخفض:

- رباه، ماذا اقول؟ اني انسى باستمرار.

- ماذا تنسين، يا سولانج؟

- انسى انك زوجته. انت صغيرة وبريئة جداً، بحيث أجد صعوبة في تخيلك مع رجل قاس وعنك مثل بيار. يمكنني تصورك بسهولة اكبر مع شاب طيب طري العود مثلك. . . شاب بريطاني اشقر الشعر ازرق العينين يمسك يدك ويأخذك الى حفلة راقصة

ويضحك بفرح وزهو كلما طوقك بذراعيه. اوه، ايلاين، لماذا تزوجت بيار؟

- لانني أحبه، يا عزيزتي.

لمعت عينا سولانج ببريق غريب اشبه بالشفقة الهازئة، أو التأثر الساخر، وقالت:

- طبعاً، طبعاً. انت شابة رومنطيقية تؤمنين بالحب، وتعتقدين انه تزوجك لسبب مماثل. ولكن زواج أبناء العائلات الميسورة أو الثرية كان، حتى نصف قرن مضى، يتم بموجب ترتيبات اجتماعية أو مادية معينة. لم يكن للحب أي مكان داخل هذه الترتيبات، الا اذا لعب الحظ دوراً كبيراً في حياة الزوجين وتعلما كيف يحبان بعضهما بصدق واخلاص. اما في ايامنا هذه، فاحتمالات زواج العاشقين من بعضهما متاحة بشكل أوسع وأفضل. ولكن بيار. . . ورث الكثير عن امه مارجريت دوروشيه.

- لا افهم ماذا تعنين بهذا الكلام؟

- حالت الظروف الاجتماعية والعقلية الطبقية المتحجرة دون زواج مارجريت من ارمون سان فيران، فاقدمت على افضل خطوة بديلة. تزوجت من جان دوروشيه، الشاب القوي الذكي الطموح الذي يعمل في خدمة سيد القصر. كان جميع الناس هنا يعرفون ان مارجريت لم تتزوج جان بدافع حبها له، بل لتتواجد قرب ارمون بصورة دائمة تقريباً وتصبح قادرة على التحكم بالقصر. . . ومن فيه. وعندما مات زوجها، تزوجت ابن الخامسة والستين وحققت حلمها القديم بحمل اسم سان فيران.

- اذا اقدمت مارجريت على الزواج بدافع المصلحة ولتحقيق مكاسب اجتماعية أو مادية، فهذا لا يعني ان بيار تزوجني انا بدوافع مماثلة. لم يعد الناس هكذا في عصرنا الحالي، يا سولانج.

- يا لك من فتاة ساذجة! لا شك ان بيار وجد سهولة فائقة في اغرائك واغوائك. استغل سحره وجاذبيته، وخبرته الطويلة في

الاثارة، فاقتنعت بانه يحبك. اختلط عليك الامر، كمعظم الصغيرات السخيفات مثلك، فلم تعرفي الفرق بين الحب الحقيقي والنشوة الآنية.

تذكرت ايلاين مدى الصدمة التي اصابتها لدى سماعها تلك الكلمات الجارحة في صراحتها، وكيف تحاملت على نفسها للاحتجاج مرة اخرى بالقول:

- ما هي المكاسب التي يمكنه تحقيقها من زواجه مني؟ انا فتاة عادية لا تملك جاهاً أو ثروة.

- هذا صحيح في الوقت الراهن، ولكن المستقبل القريب قد يحمل لك الكثير. فانت، بالنسبة لأرمون، الانسان الوحيد الذي يحق له وراثة شامبورتن بعد وفاته... نظراً لروابط الدم. لا استبعد ابداً ان تكون مارجريت احست بهذا الأمر، وشجعت ابنها على الزواج منك. ولا اشك كثيراً انها اقنعت ارمون بذلك، على اساس ان بيار هو ابن زوجته والمرشح الأمثل لمشاركة حفيدة شقيقه في وراثة شامبورتن... وبخاصة لأن الفتاة التي يعتبرها كابنته تحب بيار!

- اوه، يا له من كلام سخيف وتافه! من أين اتتك هذه الفكرة الجهنمية المذهلة؟

- من أين يا عزيزتي؟! من بيار ذاته، من زوجك... وحبيبك. هل تظنين ان الزواج كان سيتم بينكما، لو لم يوافق ارمون على شرط بيار بتغيير وصيته وجعله الوريث المشارك؟

- لا، لا اصدقك ابداً! لم يتزوجني بيار الا لانه يحبني. انا متأكدة من ذلك.

- حقاً؟ اسأليه اذن عن سبب حضوره الى هنا. اسأليه عن الليالي العديدة التي امضاها معي في هذه الشقة بالذات، منذ عودتي الى فرنسا. اسأليه لماذا كان هنا الليلة الماضية، ولماذا ترك قفازيه وقداحته. هل تصرين بعد الآن، على الاعتقاد بانه تزوجك بدافع الحب؟ انا اعرف انه لم يفعل ذلك، فهو انسان هادىء عملي يخطط

للمستقبل البعيد بحكمة وصبر وذكاء... مثل امه. كان يتطلع قدماً لزواج ملائم يحسن اوضاعه الاجتماعية والمالية، ووجد فيك الضحية المناسبة. اما بالنسبة للحب، فهو يحبني انا دون سواي. لقد احبني دائماً، وسيظل يحبني حتى...

لم تنتظر ايلاين سماع بقية تلك الجملة التي قلبت حياتها رأساً على عقب، اذ انها خرجت بسرعة من المحترف الواقع على سطح بناية عالية ونزلت راكضة على درجاتها المئة كشخص فقد عقله... وليس قلبه فقط.

رمت بنفسها وراء مقود السيارة، التي اخذتها من خالها ارمون للحضور الى هذه البلدة، وحاولت جاهدة السيطرة على ارتجاف جسمها الناجم عن الصدمة القوية التي انزلتها بها سولانج. ولكن وقع المصيبة كان كبيراً جداً، بحيث انها لم تنتبه الى ما يجري حولها الا بعد حلول الظلام.

غادرت البلدة المشؤومة، وهي تشعر بوحدة قاتلة وعذاب لا يقاوم. وفي الطريق احست بانها غير قادرة على العودة الى شامبورتن، توجهت الى بواتيه، فوصلتها منهكة القوى ومرهقة الأعصاب. اخذت غرفة في احد الفنادق الصغيرة، ولكنها ظلت مستيقظة طوال الليل... لا تعرف كيف تحد من ألمها وغيظها.

قادت سيارة خالها صباح اليوم التالي الى اقرب محطة للوقود، ثم استقلت اول قطار متجه الى باريس. ومن العاصمة البعيدة، التي لا يمكن لأحد في منطقة شامبورتن أو المقاطعات المجاورة الوصول اليها بسرعة، اتصلت بالقصر وطلبت من جاك ابلاغ بيار لدى عودته بانها ذاهبة الى لندن لزيارة ابن عم والدها... وسوف تكتب له من هناك.

قررت ايلاين لدى وصولها الى العاصمة البريطانية الآ تذهب مباشرة الى منزل عمها في آشلي، بل أمضت بضعة ايام مع صديقة تعرفها منذ ايام الدراسة. كانت تود البقاء منعزلة في هذه الشقة

الصغيرة الى اجل غير مسمى، ولكن وضعها النفسي اقلق صديقتها الى درجة كبيرة، فاتصلت بتشارلز وجيني وابلغتهما عما جرى. ونتيجة لذلك، حضرت جيني بعد ظهر اليوم الثالث للاتصال الهاتفي واخذت ابلاين الى آشلي.

كانا طيبين جداً معها، ولم يعلقا بشيء على قولها انها تركت بيار ولن تعود اليه ابداً. وظفها تشارلز في مكاتب الشركة، وفي الدائرة التي يرأسها جيرالد مورتون. كتبت رسالة لبيار ابلغته فيها انها ادركت الآن الخطأ الذي ارتكبته بقبولها الزواج منه بمثل تلك السرعة، وانها بحاجة الى بعض الوقت لتفكر بموضوع علاقتهما. جاءها الرد على تلك الرسالة من خالها ارمون، الذي حثها على العودة الى زوجها. اما بيار، فلم يكتب لها الا بعد مرور اكثر من ثلاثة اشهر على عودتها الى لندن. قال لها بايجاز:

« اعتبر ان هذه الفترة كافية للتفكير والتحليل. ارجو اعلامي بموعد عودتك. »

اعادت الغطرسة الباردة فتح جروحها. لو انه اتى الى لندن وطالبها بالعودة اليه... لو انه قال لها في رسالته تلك انه يحبها ويريدها، لكانت عادت دون تردد. ولكن سياسة اللامبالاة وعدم الاكتراث ظلت مهيمنة على تصرفاته وردود فعله، فاقنعتها ببرودته بأنه فعلاً لم يتزوجها بدافع الحب والهيام. بعثت له برسالة قالت فيها انها قررت البقاء في لندن، وانها تأمل في توصلهما قريباً الى اعداد الترتيبات اللازمة لطلاقهما. لم يكتب لها بعد ذلك اي رسالة على الاطلاق.

تقلبت في سريرها اكثر من مرة، ثم نامت على ظهرها وراحت تحدق في السقف. يا لسخرية الاقدار! ها هي الآن في المكان الذي اقسمت على الا تأتي اليه ابداً، والجميع يظنون انها عادت الى... زوجها. لا يعرف الحقيقة المرة الا شخصان... هي وبيار. لقد اوقعت نفسها في الرمال المتحركة للادعاء الخطر، ووضعت حاضرها

ومستقبلها على كف عفريت. ولكن...

سمعت طرقة خفيفة على الباب، ثم رأته يفتح بهدوء ليطل منه وجه بيار. هبت جالسة في سريرها بسرعة وتحفز، فابتسم وسألها بنعومة:

- هل يمكنني الدخول؟

- نعم.

دخل واغلق الباب وراءه، فتمنت لو انها لم تتسرع في الجلوس. وقع الغطاء من يدها وكشف عنها امام عينيه، اللتين كانتا تتفحصانها بدقة وروية. حاولت الا تظهر انفعالها أو خجلها، فرفعت ركبتيها وضمتهما بذراعيها ثم سألته ببرودة:

- ماذا تريد؟

- حذاء العمل.

اقترب من السرير ومضى الى القول:

- لا بد لي من شكرك على نقل امتعتي الى الغرفة الأخرى. ولكنك نسيت، لسوء الحظ، الحذاء الذي احتاجه لهذا اليوم. ارجو تقبل اعتذاري على دخولي في هذا الوقت المبكر، فأنا مضطر لأخذه.

أذهلها تهذيبه الفائق الى درجة الصدمة، فارتعش جسمها واحست بالبرد على الرغم من دفء الغرفة. قالت له متمتمة:

- طبعاً.

فتح بيار الخزانة وأخرج الحذاء، ثم... ويا لخوفها... جلس قربها على حافة السرير. حاولت التسلل بهدوء وعلى نحو طبيعي الى الجانب الآخر من السرير، ولكنها لاحظت انه يجلس على جزء من قميص النوم الذي ترتديه. وضع قدمه في الحذاء، وسألها بتلك اللهجة المهذبة ذاتها:

- هل نمت جيداً؟

اجابته وهي تشعر بتوتر شديد في اعصابها، نتيجة لاقترابه منها بهذا الشكل المثير:

- نعم، شكراً. وأنت؟
ادخل القدم الأخرى، وقال:
- نمت بارتياح بالغ.
تأملت وجهه الأسمر المتوتر، الذي تبدو عليه ملامح التعب، فأحست بتأنيب الضمير لاصرارها على الانفراد بهذا السرير الكبير وارغامه على النوم في حجرة مخصصة للاطفال. قالت له بعفوية واضحة:
- انا آسفة. من المؤكد ان ذلك السرير ليس مريحاً اطلاقاً... فهو ضيق وصغير جداً.
- ربما.
وقف بيار، فأحست ايلاين بالراحة النفسية. سار نحو النافذة وفتحها على مصراعيها، فتدفقت أشعة الشمس لتنير الغرفة شبه المظلمة. ثم اضاف قائلاً بهدوء:
- لم انم فيه، وعليه فلست قادراً على اعطاء أي رأي ثابت عنه.
سألته بسرعة، ودون تردد:
- اين نمت اذن؟
كان بيار لا يزال واقفاً قرب النافذة، يتطلع الى شيء ما في باحة القصر، فبدت احدى وجنتيه وكأنها مغطاة بقناع ذهبي. استدار نحوها باسماً، فتحطم ذلك القناع الجميل لأن الوجه لم يعد معرضاً لأشعة الشمس الذهبية. قال لها باستفزاز رقيق ناعم، أغرق تفكيرها في دوامة مزعجة من التساؤلات والافتراضات:
- عليك انت معرفة المكان بنفسك.
علقت على كلامه بشيء من البرودة، والتظاهر بعدم الاهتمام:
- قد يكون من الأفضل أن انام انا في الحجرة الثانية.
تأملها ملياً، وقال:
- هذا حل واحد للمشكلة، ولكنني لا اعتبره الحل الأفضل.
ابتعد عن النافذة، وبدأ يتجه نحو باب الغرفة. اصطدمت قدمه

برجل الطاولة، التي كانت ايلاين تكتب عليها في الليلة السابقة، فوقعت رسالتها الى جيرالد على الأرض. انحنى لالتقاطها واعادتها الى مكانها. وما أن لمح الكلمات الأولى، حتى رفع حاجبيه وبدأ يقرأ بصوت عال... مشدداً على لكنته الفرنسية:
«عزيزي جيرالد، وصلت اليوم الى شامبورتن دون أي عناء يذكر. قابلت خالي، فتمنى عليّ البقاء قريبة منه لبعض الوقت.»
رمت ايلاين الغطاء عنها وقفزت نحو بيار، وهي تمد يدها لاستعادة الرسالة وتقول له بحدة بالغة:
- كيف تجرؤ على قراءة رسالتي!
لم تتمكن من أخذ الورقة الصغيرة من يده، لأنه رفعها عالياً فوق رأسه وراح يلوّح بها مستفزاً اياها. وبسبب اندفاعها بقوة نحوه وفشلها في الامساك بيده، لم تتمكن من السيطرة على سرعة تحركها... فهوت عليه. مد ذراعه الأخرى كلمح البصر وطوق جسمها، فوجدت نفسها مرة ثانية قريبة منه. حاولت التخلص من قبضته القوية الشريرة، صارخة بوجهه:
- اتركني! اتركني! اعطني رسالتي!
قال لها بهدوء زاد من عذابها وألمها:
- لن اعطيك اياها، الا عندما أعرف من هو جيرالد هذا.
شهقت بانفعال، قائلة:
- بيار، انك تؤلمني!
- لا. انت مخطئة كثيراً. اذا توقفت عن الحركة، فلن تشعري بأي أوجاع أو آلام. ستشعرين دائماً بالأذى والضرر، نتيجة لطيشك وعنف اندفاعك. قليلاً من الهدوء، ايتها الحبيبة، وسيكون كل شيء على ما يرام.
ارغمتها القوة الواضحة في جملته الأخيرة، وقبضته الضاغطة عليها بطريقة لا تعرف الشفقة على التوقف عن محاولاتها الفاشلة... فيما كان صدرها يعلو ويهبط بشكل انفعالي متوتر، وهي

يحاول التقاط انفاسها. سألها بلهجة حازمة وصارمة:

- هل هو حبيبك؟

انتفض رأسها بعصبية بالغة، ونظرت اليه متحدية متمردة ثم قالت:

- لست مضطرة لابلاغك اي شيء على الاطلاق.

- بلى، فمن حقي الاطلاع على مثل هذه الامور

ضحكت بحنق واستهزاء، وقالت:

- اوه، انت وحقوقك! انا ايضاً لدي حقوق! أليس من حقي اذن معرفة المكان الذي نمت فيه ليلة امس؟

- نمت على الأريكة الموجودة في غرفة المكتبة

أربكها جوابه الرصين، فأسندت ظهرها الى ذراعه القويه وحدقت به... لتدرس عينيه وتحاول قراءة ما يجول فيهما ووراءهما. بادلها تلك النظرات الفاحصة بالمثل، فتحول نظرها بهدوء الى شفتيه الجذابتين الباسمتين بسخرية... وقالت له بلهجة جافة جداً:

- لا اصدقك.

نظر اليها شزراً، وقال لها بصوت يرتجف حنقاً وسخطاً:

- حسناً، سأحاول مرة ثانية. نمت في سرير امرأة اخرى... ستصدقين هذا الأمر بالتأكيد، ودون تردد!

ضغط على خصرها قليلاً، ومضى الى القول:

- حدثيني الآن عن المدعو جيرالد. هل هو سبب مطالبتك بالطلاق؟

وضعت ايلاين يديها على صدره وحاولت دفعه عنها، ولكنها فوجئت بذراعه الأخرى التي كانت حتى لحظات خلت فوق رأسه... تنزل بسرعة وتنضم الى اختها في عملية التطويق المحكمة. حاولت تجنب الموضوع بقولها:

- اوه، لا يمكنني بحث أي مسألة معك، وأنت تعتصرني على هذا الشكل.

- وكيف تريدينني أن اعصرك اذن؟

- لا... أعني... انني...

لم ينفع احتجاجها بشيء، اذ ذكّرها بأيام السعادة والهناء. اشتعلت الرغبات المكبوتة في داخلها، وثارت احاسيسها ومشاعرها طالبة المزيد. نظرت اليه بعينين شبه مغمضتين، فرأت عينيه تحومان فوق وجهها كنسرين على وشك الانقضاض. تأوهت وتمنت لو انه يحملها الآن بعيداً عن العالم. وما هي الا لحظة وجيزة، حتى أحست به يعانقها... اوه! ذابت بين يديه، وشعرت بالدماء الحارة تغلي في عروقها. رفعت ذراعيها لتطوق عنقه ولكن الباب فتح فجأة وسمعت ماري تقول بصوت يغلب عليه التلعثم والتردد... والخوف:

- اوه، عفواً، سيدي، سيدتي!

ابتعد بيار عن ايلاين والتفتا معاً نحو الخادمة الشابة التي كادت الدماء تتدفق من وجنتيها حياء وخجلاً. سألها بيار بصوت رقيق ناعم، كيلا يزيد اضطرابها وخوفها:

- ماذا تريدين يا ماري؟

كانت الفتاة ترتجف بقوة نتيجة الصدمة التي اصيبت بها، فلم يصدر عنها سوى أصوات مبهمة. ثم خرجت بسرعة، لتعود بعد لحظة حاملة صينية عليها سلة من الخبز الطازج وصحن من الحلويات وابريق قهوة. وضعتها على الطاولة، وقالت:

- هذه... هذه... للسيدة.

- شكراً. شكراً جزيلاً، يا ماري.

خرجت الفتاة دون تردد، فالتفت بيار نحو ايلاين وقال:

- اوه! الفطور في الغرفة! يبدو ان احداً، في هذا البيت يحاول اقناعك بالبقاء.

خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه، دون أن يضيف شيئاً أو ينتظر جواباً. صبت فنجاناً من القهوة الشهية الطعم والرائحة، وهي لا تزال تفكر بجمله وتحاول تحليلها. لا شك في أن مارجريت هي

التي طلبت من ماري احضار الفطور الى غرفة النوم، في محاولة لتدليل كنتها كما كانت تفعل قبل سنوات عديدة... عندما لم تكن ايلاين آنذاك سوى طفلة صغيرة، وحفيدة شقيقة زوجها. رفعت فنجان القهوة الى شفتيها، فشاهدت قربه وردة حمراء ذكية الرائحة رائعة الجمال... كعنوان بارز للترحيب الحار.

ولكن بيار لا يريدها أن تبقى في شامبورتن، وقد بدأ هذا الأمر يتأكد لها اكثر فأكثر وساعة بعد ساعة. انه يحذيها ويمارس معها شتى الأساليب السلبية القاسية، لحملها على مغادرة القصر. تباً لها ولضعفها امامه! كيف سمحت لنفسها بالتصرف معه بتلك الطريقة الاستسلامية الوضيعة، لا بد انه يضحك عليها الآن! ألم تقل له قبل أقل من اربع وعشرين ساعة فقط، انه لا يمكنها النوم في سرير واحد... أو حتى في غرفة واحدة... مع شخص لا تحبه؟ فماذا فعلت قبل دقائق؟ تحوّل جسمها، بمجرد تطويقها بذراعيه وضمّها اليه بقوة، الى كتلة من نار... لو لم تدخل ماري في تلك اللحظة، لكانت... لا، لن تسمح لنفسها حتى بتخيّل ذلك! يتحتم عليها تجنّب تكرار مثل هذه الأمور، والا فانها...

تناولت فطورها ثم ارتدت ثياباً صيفية رقيقة، ولكنها محتشمة كالعادة، وتوجهت الى المطبخ لتعيد الصينية. شاهدت مارجريت هناك، فألقت عليها تحية الصباح. ابتسمت السيدة الهادئة، ورحبت بها قائلة:

- أسعدت صباحاً، يا ايلاين. كيف حالك اليوم؟

- لا بأس.

لاحظت ايلاين آثار التعب والارهاق والقلق على وجه مارجريت، فسألتها:

- كيف حال الخال ارمون هذا الصباح؟ هل نام جيداً؟

- لا! كان أرقاً ومتململاً جداً، واصر على التحدث مع بيار في وقت متأخر من الليل. لحسن الحظ، كان بيار لا يزال مستيقظاً.

أوه، انا آسفة ايتها الحبيبة لأنك تضايقت الى هذه الدرجة في الليلة الأولى لعودتك الى البيت. مسكين بيار ايضاً... فقد ظل جالساً قرب ارمون حتى الرابعة من صباح هذا اليوم.

- انا لم اكن متضايقة، ولكنني لم اعرف انه بقي مع خالي معظم الليل. لم يقل لي شيئاً من هذا القبيل.

- وعليه فانك تفترضين انه ليس من النوع القادر على القيام بمثل هذه الأعمال الرقيقة الكريمة. أليس كذلك؟ لا، يا عزيزتي، فبيار رجل طيب جداً كما كان والده من قبله... وأنا اتمنى له دائماً ان يكون سعيداً.

- أليس بيار سعيداً؟

- لا اعتقد ذلك. مع انه لا يتحدث ابداً عن هذه المواضيع. فهو ليس من النوع المتذمر المتباكي، أو الذي يحب اطلاع القاصي والداني على حقيقة مشاعره وعواطفه. ولكني اشعر احياناً بانه متشائم ويحس بالأسى والكرب، واميل بالتالي الى القاء اللوم عليك وتحميلك مسؤولية هذه التطورات السلبية في حياته.

- انا؟... انا؟

- نعم! فانت لم تكوني زوجة طيبة معه، واتساءل احياناً عما اذا كان يشعر بالندم لزواجه منك.

أخذ جسم ايلاين يرتجف كورقة خريفية في يوم عاصف، فيما كان الغضب الساخط في داخلها يكاد يحرق اعصابها ومشاعرها. ثمة سبب واحد فقط لاحتمال ندمه، وهو رغبته في الزواج من سولانج. هل تخبر امه عن علاقته مع تلك المرأة، وعما قالته سولانج عن مارجريت وابنها؟ هل تقول لها انها كانت مستعدة تماماً للطلاق منه فوراً ودون تردد، لأنه بعيد كل البعد عن كونه الزوج الصالح المثالي؟

تذكرت انه يفترض بها التظاهر بعودة المياه مع بيار الى مجاريها الطبيعية، وأدركت فجأة ان مارجريت تدلي فقط برأيها التقليدي فيما يتعلق بالزواج. فمهمة الزوجة، حسب اعتقادها ونظريتها، اسعاد

زوجها وانجاب الأطفال والاهتمام بعائلتها. لن تتمكن هذه السيدة المسنة، ولو بعد مئة عام، من تفهم نقطة بالغة الأهمية. . . وهي ان الزواج لا يعني بالضرورة ارغام المرأة على التضحية بقلبها وكرامتها وكافة حقوقها. لن تجادل مارجريت وتجرح شعورها! قالت لها وهي تشير الى الصينية والوردة:

- تمتعت كثيراً بهذا الفطور الرائع، وبلفتة الترحيب الكريمة.

- انا ارحب بك دائماً، ايتها العزيزة، ولكنني لم اقل لماري اي شيء عن اضافة وردة حمراء. اتركي الصينية في مكانها، فسوف تهتم بها ماري في وقت لاحق. اخبريني الآن. . . هل تحبين اليوم القيام بأمور معينة؟

لم تسمعها ايلاين، بسبب تركيز اهتمامها بكامله على تلك الوردة الجميلة. من وضعها او امر بوضعها، يا ترى؟ بيار؟ لا، لا يمكن! اخذت الوردة ووضعتها في صدرها، ثم ادارت وجهها نحو الباب وهمّت بالخروج. كررت مارجريت سؤالها بصوت أعلى، يغلب عليه طابع المرح والارتياح، فأفاقت ايلاين من ذهولها وقالت:

- اريد مساعدتك. هل يمكنني الجلوس مع الخال ارمون لمعاونته والاهتمام به؟

- ربما في وقت لاحق. على أي حال، فهو سيطلب مقابلتك في وقت ما قبل الظهر. لماذا لا تقومين الآن بنزهة في الحديقة، طالما ان الطقس يسمح بذلك؟ ستشتد الحرارة خلال فترة قصيرة.

سارت ايلاين في الحديقة لبعض الوقت، ثم توجهت الى النهر على طريق ترابية ضيقة تحيط بها وتظللها كروم العنب وأشجار السرو. وفي نهاية الممر الطويل، شاهدت الزورقين شبه المسطحين اللذين كانا يستخدمان لنقل الانتاج الزراعي والحيواني الى اقرب الأسواق التجارية. سرت ايلاين كثيراً، لأنها تذكرت الرحلات النهرية التي كانت تقوم بها أثناء كل فصل صيف كانت تمضيه في شامبورتن. نزلت الى احدهما وفكت الحبل الذي يربطه بالرصيف

الخشبي القديم، فانساب الزورق بهدوء مع مياه النهر. انحنت لالتقاط المجذاف من المكان الذي يوجد فيه عادة، فلم تجده! اصيبت بدهشة قوية، تحولت خلال لحظات الى تأنيب ذاتي بسبب التسرع والاهمال. وما أن استفاقت من ذهولها وصدمتها، حتى تبين لها انها لم تعد قادرة على القفز الى حافة الرصيف أو الى نقطة اخرى على ضفة النهر.

وضعت يديها حول فمها ونادت بأعلى صوتها، لجذب انتباه احد الرجال العاملين في الكروم والحقول المجاورة. . . فلم يسمعها احد. كان الطقس جيداً، والجو دافئاً، ومياه النهر تبدو هادئة ساكنة. . . فلم تشعر ايلاين بالخوف أو القلق. تمددت على الزورق ووضعت يديها تحت رأسها، علّ وجهها الشاحب يكسب بعض النضارة والاحمرار.

فتحت عينيها بعد قليل وجلست، فلاحظت أن زورقها الذي ينطلق بسرعة اكبر الى حد ما اصبح في وسط منطقة عريضة جداً من ذلك النهر. انبطحت فوراً على الحافة القريبة منها وراحت تجذف بيدها اليمنى بأقصى قوتها لتتمكن على الأقل من تحويل الزورق الى احدى ضفتي النهر. ولكن الزورق كبير الحجم وثقيل الوزن، فلم يتجاوب مع محاولاتها المتعددة اليائسة. وفجأة، سمعت هدير مياه على بعد بضع مئات من الأمتار. تذكرت الشلال المزعج، الذي لم يجرؤ على تحديه سوى نفر قليل من المغامرين الاشاوس في زوارق مطاطية معدة خصيصاً لمثل هذه الرياضة المحفوفة بالأخطار.

اصيبت بهلع شديد، وقررت فوراً التخلي عن الزورق قبل تعرضها لمشاكل هي بغنى عنها. قفزت منه الى الماء وسبحت الى الضفة، فوصلتها متعبة بسبب قوة التيار واندفاع المياه. جلست على صخرة صغيرة ووضعت رأسها على ركبتيها، لالتقاط انفاسها واخذ قسط من الراحة.

وقفت بعد لحظات وتطلعت نحو النهر، فلاحظت اختفاء

الزورق. هزت رأسها وراحت تعصر شعرها المبلل، وهي تفكر بهذه
المغامرة التي قامت بها في مستهل اليوم الاول لوصولها. ضحكت
عندما تخيلت نفسها جالسة مع بيار، تشرح له ما حدث معها.

- يسرني انك لا تزالين قادرة على الضحك.

شهقت دهشة واستغراباً، واستدارت نحو مصدر الصوت
المألوف لتشاهد بيار واقفاً قرب دراجته الهوائية. سألته بلهفة:

- من أين اتيت؟

- كنت عائداً من جولة تفتيشية في منطقة قريبة من النهر، فرأيت
زورقاً خالياً يندفع مع التيار نحو الشلال ثم رأيتك جالسة هنا. ماذا
كنت تحاولين؟ اغراق نفسك؟

- طبعاً لا! لم اكتشف عدم وجود المجذاف، الا بعد ابتعاد الزورق
عن المكان الذي يربط فيه. وعندما فشلت في تحويل مساره الى احدى
الضفتين، قفزت منه وسبحت الى هنا. على أي حال، اشك كثيراً في
امكانية غرق أي انسان يعرف السباحة جيداً... في هذا النهر. فهو
ليس عميقاً جداً، وتياره...

قاطعها بهدوء قائلاً:

- ومع ذلك، فقد غرق فيه أبي.

- اوه... لم... لم اكن... أعرف...

- لا تعرفين اشياء كثيرة، يا عزيزتي. وعوضاً عن الاستفسار عن
الأشياء التي تجهلينها ومعرفة الأمور بالطرق الصحيحة والسليمة،
تسرعين في استنباط افتراضات وانطباعات هوجاء ثم تقنعين نفسك
بأنها حقائق ثابتة لا غبار على صحتها وسلامتها.

فوجئت بهجومه المباغت، واحتجت قائلة:

- لا، ليس هذا الكلام محقاً او منصفاً! فأنا لم اكن ادري بحادثة
والدك المؤسفة، لأنك لم تخبرني اي شيء عنها. لم تطلعني على اي
موضوع، هاماً كان أم تافهاً.

- لأنك لم تهتمي ابداً الى درجة تدفعك الى توجيه اسئلة صريحة

ومباشرة.

- بلى، بلى كنت اهتم.

- ولكن ليس بما فيه الكفاية لتسألي مثلاً عما اذا كان كلام سولانج
صحيحاً أم كاذباً، أو لتعطيني مجالاً لتوضيح بعض الأمور. لكل
انسان حقه في شرح مواقفه، ولكنك حرمتني من هذا الحق المقدس.
فبمجرد اكتشافك شيئاً عني لم يعجبك، وتصورت انه يجرح شعورك
وكرامتك واحترامك لنفسك، تصرفت حسب عادتك كفتاة مدللة
سخيفة. قررت الهرب، عوضاً عن مواجهة الأمور كأي زوجة
عاقلة. مضت ثمانية أشهر على فرارك، وأنت لا تزالين غير قادرة على
تحمل مسؤولياتك كزوجتي.

أشعلت كلماته القاسية وقود غضبها وسخطها، فتحفزت
للمبارزة والقتال. تنهدت بانفعال بالغ، لتتمكن من الرد عليه بعنف
مماثل، وقالت:

- المسؤولية! مسؤوليتي كزوجتك... هذا كل ما سمعته منك
منذ عودتي! اذا كنت تعتقد انني سيئة جداً كزوجة، فلماذا لا
تطلقني؟

- لأنني سالعن نفسي اذا سمحت لك بالزواج من شخص
يدعى... جيرالد.

- تقول ذلك لمجرد تحويل افكاري عن لب الموضوع! لا، ليس
هذا هو السبب اطلاقاً! انت تريد شامبورتن، ووصية الخال ارمون
في وضعها الحالي لا تمنحك سوى النصف.

حدق بها لحظة ثم هز كتفيه، وكأنه يعتبر المضي في هذا الجدل
العقيم هدراً لوقت ثمين. تأمل بسرعة الوردة المبللة، وقال لها:

- تبدين في وضع لا تحسدين عليه ابداً، من حيث الشكل
والرائحة.

- كم انت لطيف ولبق واجتماعي!

استدارت بعصبية نحو القصر وبدأت تمشي حافية القدمين،

وهي تشعر بالوخز المؤلم للحجارة الصغيرة الحادة. اوقفها في مكانها صارخاً بانفعال:

- هل تركت البيت دون حذاء؟

ردت عليه بحدة مماثلة، وهي تتابع طريقها:

- خلعت الحذاء في الزورق، عندما قررت القفز الى الماء والسباحة الى اليابسة.

لحق بها بيار، وهو يمسك دراجته، ثم قال لها مؤنباً:

- لم يكن هناك اي لزوم للتخلي عن الزورق، فذلك يتعارض مع كافة قوانين السلامة. كان يجدر بك البقاء فيه، لأن الغرق في النهر لم يكن بعيد الاحتمال.

- كنت سأتعرض للغرق ايضاً لو لم اقفز منه، بسبب السد المقام قبل الشلال.

- السد؟ اي سد، واي شلال؟

- الشلال الذي يقع على بعد بضع مئات من الأمتار. اني اسمع هدير الماء.

- في مخيلتك فقط، ايتها الذكية. فالسد الوحيد في هذه المنطقة كلها يقع قرب قرية لوتين، وهي تبعد حوالى سبعة كيلومترات من هنا. لم يكن بامكانك الوصول الى منطقة السد، لأن الزورق كان سيتوقف على احدى الضفتين بسبب التعرجات العديدة التي يمر بها النهر. وعندها، كنت ستنزلين منه بهدوء الى اليابسة وتعودين الى القصر سيراً دون خسارة الزورق... أو الحذاء.

لم تشك ايلاين في صحة كلامه، فهو يعيش هنا منذ طفولته ويعرف كل شيء عن المنطقة ونهرها. لقد تصرفت مرة اخرى باندفاع وتسرع، وها هي الآن مضطرة للسير حافية القدمين وتحمل كافة الأوجاع والآلام التي ستنجم عن ذلك. قال لها بيار بهدوء:

- اذا احببت ان تجلسي امامي على الدراجة، فسوف آخذك الى البيت. ليس لدي وقت كاف لكي اسير معك.

- شكراً، لا حاجة لذلك ابداً. لا اريد تأخيرك عن عملك.

لن تقبل اي خدمة منه، ولن تفسح له اي مجال آخر للاقتراب منها. رفعت رأسها بعنفوان وتحد، وعادت الى السير باتجاه القصر. ولكنها توقفت ثانية وهي تكاد تصرخ من الألم، بسبب الحجر المسنن الصغير الذي داست عليه خطأ. وقفت على رجل واحدة ورفعت قدمها لتفحص الأضرار التي لحقت بها، فشاهدت ثقباً صغيراً يسيل منه الدم. صرخ بها بيار، بانزعاج واضح:

- رباه، كم انت عنيدة! وأنانية ايضاً، تضعين نفسك دائماً في المقام الأول ولا يهمك ما قد يلحق بغيرك من مضايقات نتيجة تصرفاتك السخيفة المتهورة!

- افرح وهلل! انا عنيدة وأنانية وغبية، ولكنني لا ارى اي علاقة اطلاقاً بين عودتي الى البيت سيراً... وكيفية التسبب في مضايقة الآخرين.

- ستصاب قدماك بجروح بالغة وتورم شديد، مما يحرمك من السير عليهما فترة طويلة. قد تتحملين العذاب لمسافة قصيرة، ولكن البيت يبعد حوالى ثلاثة كيلومترات من هنا. هيا، يا ايلاين، واصعدي امامي. لن تكون المرة الأولى التي نركب فيها معاً.

هل ستتحمل القرب منه للمرة الثانية خلال يوم واحد، دونما اي اضطراب في مشاعرها أو احاسيسها؟ ولكن الطريق طويلة وصعبة، والحر شديد ومرهق...

- حسناً.

جلست امامه، وهي تتظاهر بالبرودة واللامبالاة. وما ان مد اليد الأخرى للامساك بالمقود، وانحنى قليلاً الى الأمام ليتمكن من دفع الدراجة، حتى احست بحرارة جسمه تذيب اي مقاومة قد تحاول اللجوء اليها... في حال تعرضها لأي هجوم محتمل.

٤ - الإرث... والحل الوحيد

يا له من جو شاعري حالم! خرير المياه، زقزقة العصافير، تموّج الظلال، و... وجودها بين ذراعيه القويتين! نسيت امتعاضها منه وكرهها له، وتخيلت نفسها فجأة بطلة احدى قصص الفروسية والغرام. انقذها الفارس الشجاع من النهر الذي كاد يتحول الى قبر، وها هو الآن ينطلق بها على صهوة حصانه الى القصر... حيث ستكافئه على حسن صنيعه.

ولكن قوة تنفس منقذها الوسيم جعلتها تفيق من احلام اليقظة، وتنتبه الى ان الطريق لم تعد مستوية. هل ستجرح شعوره وكبرياءه، اذا اقترحت عليه النزول عن دراجته والسير مسافة قصيرة لحين عبورهما هذا المرتفع الصغير؟ سيعتبر كلامها تحدياً لرجولته وقوته، و... لقد تأخرت كعادتها في اتخاذ القرار المناسب، اذ تجاوزا مراحل الصعود وتحولت الطريق الى الانحدار.

كبح بيار الدراجة فجأة، فارتمت بين ساعديه وصدره وشعرت بانحباس انفاسها. سألته عما حدث، فأجابها بهدوء:

- كنا ننطلق بسرعة كبيرة، كادت تشكل بعض الخطر علينا.
- هل اشكل عبئاً ثقيلاً على الدراجة؟
- انت؟ لا يا عزيزتي، فأنت خفيفة كالريشة.

لم تعلق على جملته، فبدأ يدندن لحناً حزيناً تصورت انه مألوف لديها الى حد. سألته عن النغم الذي يردده، فقال:

- انها اغنية قديمة جداً تتحدث عن نبع صافٍ، تذكرتها عندما شاهدتك قرب النهر.

هل يعقل أن يكون هذا الرجل القاسي، رقيق القلب والمشاعر احيانا؟ دفعها الفضول الى معرفة المزيد عن هذه الأغنية... وعنه، فقالت له:

- اخبرني كلماتها، من فضلك.
- المقطع الأول فقط. عندما ستسمعين كلماته، ستعرفين لماذا تذكرت الأغنية.

ردد لها الكلمات بهدوء، فأحست ايلايين ان ما من ترجمة لها ستعطيها حقها وتحافظ على رقتها وجمالها. ومع انها ليست ضليعة في أي من اللغتين، الا ان المعنى الحقيقي لهذا الشعر العذب لم يفتها اطلاقاً. ابتسمت ضمناً، وهي تفسر الكلمات الحلوة لنفسها:

«عندما كنت واقفاً قرب النبع الصافي، شعرت باغراء الماء الذي لا يقاوم. لبّيت الدعوة صاغراً مسروراً، ونزلت اليه لأسبح.»

لاحظ بيار أنها تحاول التمعن بكلمات الأغنية، فسألها:

- هل وجدت مطلع الأغنية ملائماً لما حدث؟
- نعم، اعتقد ذلك. هل تذكر مقاطع اخرى من الأغنية؟
- نعم، ولكنها ليست عن الماء أو السباحة.
- عما تتحدث اذن؟
- عن حب مضى. يقول آخر بيت في الأغنية: «احببتك منذ زمن طويل، ولن انساك ابداً.»

اغرورقت عيناها بالدموع، فلم تعد ترى أي شيء بوضوح. الأشجار، النهر، الطريق، اصبحت كلها صورة مشوهة... ملطخة... وحزينة. لو انه يعني هذه الكلمات التي يغنيها لها الآن! لو انه على الأقل كتبها في تلك الرسالة، التي طالبها فيها بالعودة، لكانت عادت اليه على جناح السرعة! لو انه يحبها... ولكنه لم ولن يحبها ابداً. لقد احب دائماً امرأة اسمها سولانج... ولا يزال...

وسيظل يحبها حتى آخر يوم في حياته. قالت له بصوت منخفض:

- اغنية جميلة، ولكنها حزينة.

- انها حقاً حزينة. ولكن الندم باستمرار على علاقة حب مضت وانتهت، من شأنه ادخال الحزن والأسى الى قلب الانسان... واضاعة وقته وهدر طاقته.

- وأنت لن تقبل بحدوث امر كهذا، اليس كذلك؟

- طبعاً لا! فانا رجل عملي، واؤمن بضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة لمواجهة مثل هذه المشاكل.

ولكنه لم يتخذ أي اجراءات، عندما تركته قبل حوالى تسعة اشهر. اذن، فهو يشير الى علاقته مع سولانج. فما ان ظهر حبه القديم، حتى سارع الى اتخاذ الخطوات الضرورية... عوضاً عن اضاعة وقته وطاقته في الندم على قرار الزواج. ويبدو ان قسم الاخلاص والوفاء لها مدى الحياة، لم يكن يعني له اي شيء على الاطلاق.

ومع ذلك، فقد ذكرت امه هذا الصباح انه حزين. لماذا؟ اي شيء يحزنه اذن، ان لم يكن نادماً على فقدان حبه القديم؟ عقدت ايلاين جبينها فجأة، وهي تتذكر كلام بيار عن الليلة التي امضاها في باريس... وكيفية ملاحقته لها دون اقدامه على محاولة تجاوزها وايقافها. لو لم تنزلق سيارتها الى تلك القناة، لما كان حذرها من موقف خاطئ تجاهها... وكانت ستعود الى لندن وقد حرمت من الارث بسبب رفضها المصالحة مع زوجها.

الا يثبت ذلك كله ان حزنه ناجم عن حضورها الى شامبورتن؟ لا يريد عودتها، ولكنه لا يوافق ايضاً على الطلاق. لماذا؟ الجواب بسيط للغاية، ومزعج الى درجة مذهلة. فهو يحاول ابعادها الى لندن لكي تخلو له الساحة مع حبيبته، ويعارض الطلاق كيلا تفوته فرصة المشاركة في وراثة شامبورتن.

أوقف بيار الدراجة فجأة، فتوقفت هي بدورها... ولو

مؤقتاً... عن التفكير بتلك الأمور السوداء المزعجة. تطلعت حولها، فشاهدت الرصيف الخشبي الذي انطلقت منه قبل بعض الوقت. من المؤكد ان بيار سيطالبها بالنزول، لاستحالة صعودهما معاً نحو القصر. نزل بيار وقال لها، فيما ظل ممسكاً بالدراجة:

- اجلسي على المقعد مكاني، لأدفعك بقية الطريق.

تاملت وجهه بسرعة، فبدا كعادته قناعاً يحجب الكآبة ومشاعره عن الآخرين. لم تلاحظ سوى التململ والتأفف، وكأنه يعتبرها عبئاً ثقيلاً ومصدر ازعاج... أو بالأحرى عقبة كبيرة يريد التخلص منها، مع انه غير قادر على ذلك. قالت له:

- بيار، اعرف ان لديك اعمالاً كثيرة و...

- لا تضيعي وقتي، اذن، بالنقاش والجدل. على أي حال، انا ذاهب الى البيت.

- يمكنني ركوب الدراجة بمفردي.

- ألا تلاحظين ان الدراجة كبيرة جداً وان الدواستين مستتان؟ الا تعلمين اننا قد نتوصل الى نوع من الحل الوسط، اذا حاولت التوقف عن معارضتي في أي شيء اريده أو اطلبه؟

- حل وسط؟ اوه، اشك كثيراً في احتمال توصلنا الى حل وسط في اي موضوع كان. فانت انسان بعيد كل البعد عن المرونة والليونة.

- وانت تتغيرين وتتبدلين باستمرار. يجب على احدنا أن يظل مستقراً على رأي ما. هيا، اجلسي على مقعد الدراجة، فلدي اعمال كثيرة يجب انجازها قبل موعد الغداء.

تأملت ايلاين الدراجة والدواستين والطريق، فتأكدت من صحة كلامه. انه على حق، كعادته! اللعنة عليه، وعلى غطرسته! ستضطر للرضوخ مرة اخرى! جلست على مقعد الدراجة وأمسكت بقميصه، كيلا تهوي الى الوراء. وما ان وصلا الى باحة القصر، حتى ظهرت امامهما السيارة الحمراء الصغيرة. نزلت ايلاين عن الدراجة، وقالت لبيار:

- اوه! نسيت ان اخبرك عن الرينو!
- تصورت ذلك. ماذا ستفعلين بها؟
- ماذا سأفعل بها؟ ماذا تعني؟
- اما ان تحتفظي بها وتتحملي نفقات استئجارها الباهظة، وأما أن تعيديها الى الشركة. هذه مسؤولية اخرى يتحتم عليك اتخاذ قرار بشأنها، يا ايلاين.
- هل يوجد فرع لهذه الشركة في المناطق المجاورة؟
- لا اعرف، فأنا لا استأجر سيارات. ألم تسألي مكتب المطار عن ذلك؟
- لا، لم افكر...
قاطعها بلهجة ساخرة:
- انت لا تفكرين ابداً.
- آه منك، ومن ملاحظاتك اللاذعة الجارحة! كنت أتوقع عودتي الى لندن صباح الاثنين، وبالتالي اعادة السيارة بعد ظهر غد الى باريس.
- ألم تفعلي ذلك؟
- طبعاً لا! قلت انني سابقى هنا الى ان يصبح وجودي غير ضروري. سأظل في شامبورتن، طالما ان خالي ارمون لا يزال على قيد الحياة.
- وماذا ستفعلين بعد وفاته؟
- لا ادري، فثمة اشياء... ارجوك، يا بيار، ان تحاول تفهم موقفي. لست قادرة بعد على اتخاذ اي قرار منطقي ومعقول، بالنسبة لموضوع البقاء هنا بصفة دائمة. فهناك امور عديدة بحاجة الى الدرس والتحليل، قبل التوصل الى مثل هذا القرار.
- حسب معرفتي بك، فأنت غير قادرة اطلاقاً على اتخاذ اي نوع من القرارات المنطقية المناسبة. لا يصدر عنك في أي قضية، حقيقية كانت ام من صنع خيالك، سوى ردود فعل عاطفية واندفاعية

متهورة. فعلت ذلك قبل تسعة اشهر، وأقدمت على خطوة مماثلة، عندما قفزت من الزورق. لا تحاولي مناقشتي الآن، فنحن لسنا في المكان والزمان الصحيحين لبحث هذه الأمور. انت بحاجة للاغتسال ولثياب جافة، وأنا اريد مقابلة دان سميث.
احست فجأة برغبة قوية لملاطفته، ولاقناعه بأنها ليست دائماً انانية لا تفكر الا بنفسها... كما يحلو له وصفها باستمرار. قالت له:
- بيار، انا آسفة لازعاجك هذا الصباح... وشكراً جزيلاً على ايصالي الى هنا.
استدار نحوها ليقول شيئاً ولكن مارجريت خرجت في تلك اللحظة من الباب الكبير وسألتها باستغراب بالغ:
- آه، ايلاين، ماذا فعلت بنفسك؟ ماذا حدث لك؟
اخبرتها عما حدث معها في النهر، فأنّبتها مارجريت قائلة بحدة:
- يا لك من فتاة متهورة طائشة، توقع نفسها في ورطة بعد اخرى كطفلة صغيرة! حان الوقت، يا عزيزتي، لتنضجي وتصبحي شابة راشدة. اوه، وهذه الرائحة الكريهة التي تفوح منك اشبه برائحة المستنقعات! اصعدي فوراً الى غرفتك واخلعي هذه الثياب الوسخة، ثم احضريها الى غرفة الغسيل لتنظفها لك ماري. هيا اسرعي! استيقظ ارمون قبل قليل، وهو يريد التحدث اليك.
نفذت ايلاين تعليمات السيدة المسنة بسرعة ودقة، ودونما اي اعتراض أو تعليق. ولما ذهبت الى غرفة خالها بعد أقل من نصف ساعة، لاحظت ان الرجل العجوز لا يزال على حاله... كما شاهدته في اليوم السابق. ولكنه ابتسم لها عندما حيّته، وقال بصوته المتعب الضعيف:
- عدت اخيراً، ابنتها الحبيبة. كان قرارك خطأً كبيراً، ولكنك عدت الآن وستبقين. اليس كذلك؟
تطلعت ايلاين بدهشة وذهول نحو مارجريت، فهمست في اذنها:

- لقد نسي انك حضرت امس. لا تعتبي عليه كثيراً، فذاكرته لم تعد قوية اطلاقاً. سيكرر لك الأقوال ذاتها بضع مرات، فكوني طويلة البال معه.

ضغطت ايلاين برفق وحنان على اليد المرتعشة التي مدها لمصافحتها، وقالت له:

- نعم سأبقى، يا خالي. سأبقى معك.

- ومع بيار، مع زوجك. على المرأة ان تبقى دائماً مع زوجها. اعترض جداً على ما يسمى الزواج العصري، وعلى التقلبات المذهلة التي تحدث خلاله. واعترض ايضاً على التي تدعي بأنها زوجة عصرية متحررة. هل تسمعين، يا ايلاين؟ لا تعجبني ابداً المرأة التي تتخلى عن زوجها فجأة، بمجرد اكتشافها ان الزواج لا يقتصر على تبادل العناق أو الحب. . . بل انه ايضاً مسؤوليات وواجبات ومشاركة. اريد ان اسمع منك الآن انك ستبقين معه، ولن تتركيه ابداً.

- سأبقى معه، يا خالي.

تنهد الرجل المريض، ثم اغمض عينيه وتمتم قائلاً:

- عظيم، عظيم. يمكنني الآن ان اموت مطمئن البال مرتاح الضمير. كنت قلقاً جداً عليك، يا ابنتي، بحيث انني بدأت التفكير جدياً بتغيير وصيتي مرة اخرى.

فتح عينيه وركز نظراته الضعيفة عليها، ومضى الى القول:

- ارى الآن شعرك الأشقر الجميل يلمع تحت اشعة الشمس الذهبية. انت صبية جميلة، ولكنك عنيدة جداً كجدتك. أصرت، رحمها الله، على ان تكون شامبورتين لك دون سواك. قلت لها مرات عديدة ان فتاة صغيرة مثلك لا تقدر على ادارة القصر والممتلكات، بما في ذلك الكروم والبساتين والمعمل.

اغمض عينيه مرة اخرى، وتابع قائلاً بصوت ضعيف هامس:

- ليست لديك، ابنتها الحبيبة، القوة والخبرة الكافيتان لتحمل

هذه المسؤولية الضخمة بمفردك. انت بحاجة الى شخص مثل بيار. فهو رجل قدير وطيب. ولهذا السبب، فقد أعددت الترتيبات اللازمة.

- اي ترتيبات، يا خالي؟

- زواجك من بيار. اقدمت على تلك الخطوة، لأني وجدتها الحل الأفضل. . . أو بالأحرى الحل الوحيد. لم اتمكن من الزواج من مارجريت، الى ان تجاوزنا سن الانجاب. وعليه، كان زواجك من بيار الحل الوحيد. . . الحل الوحيد.

انتظرت ايلاين بضع لحظات حتى تأكد لها نوم الرجل العجوز، فسحبت يدها بتمهل من يده وتوجهت نحو النافذة للتحدث مع مارجريت. كانت السيدة الهادئة منهمكة في تطريز احدى قطع القماش، وكأنها ليست مهتمة اطلاقاً بما يجري حولها. وقفت ايلاين قربها، وراحت تتأمل النهر المشع وضفتيه الخضراوين. . . وتفكر بموضوع زواجها. لقد ثبت لها الآن، وبشكل قاطع وحاسم، ان زواجها من بيار جاء كنتيجة لترتيبات وتدابير معدة سلفاً. ولكن، هل يعقل أن يكون ارمون قد أقدم على هذه الخطوة الهامة دون تشجيع من السيدة الحكيمة؟ قالت لها:

- عاد الخال ارمون الى النوم مجدداً.

- سينام قريباً الى الأبد.

ثم تنهدت وأضافت قائلة بصوت هامس:

- آه، يا حبيبي المسكين! كم عانيت وتألمت في حياتك، وكم كانت السعادة الحقيقية بعيدة عنك معظم حياتك!

تأملتها ايلاين بضع لحظات، فيما كان رأسها يضج بأسئلة لا بد يوماً من توجيهها وسماع اجابات صريحة عنها. لماذا لا تسألها الآن؟ قالت لها:

- ابلغني بيار هذا الصباح ان والده غرق في النهر. فكيف وقعت تلك الحادثة؟

نظرت اليها مارجريت بدهشة، وسألتها:

- هل تذكرين جان؟

- قليلا جدا. لم يكن يأتي كثيراً الى القصر، أليس كذلك؟

- صحيح، وكان يأتي عادة للتحدث مع ارمون في امور تتع بالعمل. ولكني متأكدة من انك شاهدت جان اكثر من مرة في بسا شامبورتن.

- ربما. ألا يشبهه بيار الى حد ما؟

- نعم. فالبنية ذاتها، وكذلك المنكبان العريضان والصدر الواس والرجلان القويتان، ولكن ملامح الوجهين مختلفة بشكل واضح.

- اذكر جيداً انه لم يكن يتحدث الي ابداً.

- كان صريحاً مع نفسه ومع الآخرين. لم يكن يحب جدتك، ور لا شك فيه انه كان يعتبرك صورة مصغرة عنها.

- اوه! لماذا لم يكن يحبها؟

ابتسمت مارجريت بطريقة غامضة، وقالت:

- سمعها مرة تتحدث معي بفظاظة بالغة، فقرر الا يغفر لها ابداً. كان عنيفاً في استقلاليته واعتماده على الذات، وشرساً في دفاعه عن حق كل انسان بالحرية والكرامة. لم يحب الانور اطلاقاً، لانها كانت تعتبر عائلة سان فيران ارفع وارقى من أي عائلة اخرى، لمجرد انها عائلة عريقة تعيش في شامبورتن منذ مئات السنين.

- وعلى الرغم من ذلك، فهو لم يرفض العمل مع الخال ارمون!

- آه، كانت تلك مسألة مختلفة تماماً.

ثم تنهدت مارجريت، واضافت قائلة:

- كان غرقه قضاء وقدراً. ففي فصل الربيع من كل سنة، عندما تبدأ الثلوج بالذوبان، يرتفع منسوب المياه في النهر وتتدفق كميات كبيرة في الحقول والبساتين المجاورة. وقبل خمسة عشر عاماً، حدث فيضان رهيب واجتاحت المياه كافة انحاء القرية بنسبة لم تشهد له المنطقة مثيلاً من قبل. هب جان وبعض الرجال الأقوياء للعمل على

انقاذ الناس من بيوتهم التي اجتاحتها السيول. وقع طفل من احدى النوافذ الى السيل الجارف، فاستنجدت الأم بجان لانقاذ الصغير. اخرج معظم جسمه من النافذة، في محاولة يائسة للامساك بالطفل، ولكنه هوى وراءه فجرفهما السيل و... توفيا.

شحب وجه ايلاين تأثراً، وقالت بلهجة صادقة لا تعرف التكلف:

- يا للهول والفظاعة! لا شك في انك حزنت كثيراً.

- طبعاً، فقد كان جان رجلاً طيباً للغاية... وكنا سعيدين جداً.

- قيل لي مرة... انك تزوجته، لأنك وجدت الأمر مناسباً وملائماً.

لم تكن تود توجيه سؤال كهذا الى مارجريت، وبخاصة اثناء التحدث عن موضوع حساس جداً كحادثة الغرق. ولكن اللسان كان أسرع من العقل و... سبق السيف العذل. اجابتها مارجريت بلهجة عادية اذهلتها:

- طبعاً، طبعاً. اردت ان اعيش معه واكون بقربه طوال الوقت، ولم يكن لدي بالتالي أي حل اكثر ملائمة من الزواج. هكذا كانت تقضي التقاليد والعادات في ايامنا، ايتها العزيزة... اما اليوم، فالأمور مختلفة.

- هل كنت تحبينه؟

- الحب؟ اوه، ايلاين، ما هو الحب؟ نظريات، أفكار، آراء؟ هل هو تجاذب مغناطيسي قوي بين ضدين؟ هل هو استعداد للغفران وتناسي الأخطاء، وتقبّل التغييرات؟ انت لديك رأيك وتفسيرك، وانا ايضاً لدي نظرة معينة بالنسبة الى هذا الموضوع البالغ الحساسية. وحسب وجهة نظري، فقد كنت احب جان... وكنا سعيدين معاً ومع اولادنا الثلاثة... بيار وشقيقته.

تطلعت ايلاين مرة اخرى نحو النهر، وهي تحاول ايجاد الشجاعة الكافية لتوجيه السؤال التالي. تنهدت بصوت منخفض، وقالت لها:

- خالتي مارجريت، اعذريني على هذا السؤال الشخصي
جداً . . . ولكني اريد معرفة الجواب بصراحة. حسب وجهة نظ
عن الحب، هل تحبين ايضاً خالي ارمون؟
- بالتأكيد يا عزيزتي. وهل اسهر على راحته واعتني به على هـ
النحو لو لم اكن احبه؟
- لا . . . لا اعتقد ذلك. ولكن . . . هل كنت تحبينه قبل جا
تأملتها مارجريت بهدوء وجدية، ثم قالت لها:
- احضري كرسياً واجلسي قربي، يا صغيرتي، فقد حان الوقت
على ما يبدو للتحدث اليك بصراحة، ولازالة بعض الاشكالات
العالقة في ذهنك ربما بسبب جدتك.
- لا، لا. كنت اعني شخصاً آخر. لم تقل لي جدتي اي شي
عنك، وقد سمعت هذه الاقوال من شخص التقيته بعد زواجي من
بيار.

احضرت كرسياً وجلست قرب السيدة المسنة، ثم مضت الى
القول:

- انا لا اعرف الا القليل القليل عنك، يا خالتي. كنت طفلة
صغيرة لا تعرف الكثير عن الناس، وفي الصيف الماضي . . .
توقفت عن متابعة جملتها، لأنها امضت طوال فصلي الصيف
والخريف الماضيين غارقة في الحب حتى اذنيها . . . صماء عمياء عما
يدور حولها. قالت لها مارجريت بنعومة:
- يبدو انني مضطرة لاطلاعك على كل شيء منذ البداية، عندما
عملت لفترة كممرضة في احد المستشفيات في بواتيه. التقيت ارمون
اثناء تلك الفترة، حيث امضى بعض الوقت في قسم الجراحة الذي
كنت اعمل فيه. توطدت بيننا عرى الصداقة، ودعاني لدى مغادرته
المستشفى بعد عمليته الجراحية الى زيارته في شامبورتن. سمعت
الكثير قبل ذلك عن القصر والعائلة العريقة التي تتوارثه جيلاً بعد
جيل، فشعرت باعتزاز كبير وسعادة فائقة. ولكن أبي وامي تضايقا

كثيراً، لأن ارمون كان عازباً يقيم بمفرده . . . ويكبرني بسنوات
عدة . . . ولأننا ايضاً من طائفتين مختلفتين.
اتيت مرة الى القصر، فالتقيت آلانور وزوجها البريطاني وابنها
الصغير . . . والدك. شعرت على الفور انها ليست موافقة على
صداقتنا. ولما حضرت في المرة التالية، اوضحت لي انني شابة غير
مرغوب فيها بالنسبة لعائلة سان فيران . . . نظراً للفوارق الاجتماعية
والطبقية والطائفية. تأثرت الى حد ما، بحيث انني رفضت الدعوة
التي وجهها لي ارمون خلال الاسبوع ذاته . . . والدعوات
اللاحقة. وفيما كنت اغادر المستشفى ظهر احد الأيام، فوجئت به
ينتظرني في سيارته. طلب مني مرافقته في نزهة قصيرة، فلم
امانع. وعندما عرض علي الزواج، رفضت.
- اوه! لماذا؟
- تعرفت خلال فترة الانقطاع عن زيارته على شخص آخر
اعجبني اكثر من ارمون، لأنه كان مختلفاً عنه . . . اقوى منه . . .
اكثر حيوية.
- جان دوروشيه؟
- نعم. كان جان الابن الاصغر لرجل يملك مساحات لا بأس بها
من الحقول والبساتين، ولكنها اصغر بكثير من شامبورتن. كان افراد
عائلة دوروشيه معروفين بحيويتهم ونشاطهم، وبخبرتهم الواسعة في
المجالات الزراعية. طلب مني جان بعد فترة معينة الزواج منه،
فقبلت دون تردد وعقد قراننا في بلدتي . . . قبل اربعين عاما تماما.
- وماذا فعل خالي ارمون؟
- بعث لنا هدية عرس رائعة، ولكنه لم يقل شيئاً لبعض الوقت.
كان يواجه مصاعب جمة في كرومه وبساتينه، لأنه لم يكن نشيطاً او
متمرساً بما فيه الكفاية لادارة اعماله بنفسه. بدأ مستوى الانتاج
والنوعية يتدنى بسرعة كبيرة، بحيث بدا ان المستوى العالمي الذي
توصلت اليه عائلته منذ حوالى مئتي عام سينهار الى الحضيض. وعند

ذلك، اتصل ارمون بجان وطلب منه تولي ادارة شامبورتن.
- هل شعرت بالسرور نتيجة لذلك؟
- نعم. لأجل جان. كان ذلك اعترافاً واضحاً بقدراته، وتحو
جذرياً في اوضاعه المالية. فمع انه ورث نصف ممتلكات والده، ال
ان المساحة كلها لم تكن كافية لسد احتياجات عائلتين كبيرتين.
احتفظ بنصيبه من بساتين دوروشيه، وانتقل الى شامبورتن للعمل
فيها. خصص لنا ارمون بيتاً صغيراً، حيث ولد بيار وشقيقتاه. وبعد
مرور بضع سنوات على اقامتنا هنا، طلب مني ارمون ان اعمل
كمدبرة منزل. وفي السنة الخامسة والعشرين لزواجنا، توفي جان
غرقاً... كما تعلمين، لم اترك عملي هنا... ولما عرض علي الزواج
منه بعد انقضاء ثلاثة اعوام على وفاة جان، ترددت قليلاً ثم وافقت.
ظل مخلصاً لي طوال الوقت، حتى بعد زواجي من رجل آخر. لم يحب
احداً غيري خلال تلك الفترة التي امتدت اكثر من ربع قرن،
وشعرت بالتالي ان علي منحه بعض السعادة مقابل هذا الوفاء الرائع
والنادر.

تأثرت ايلاين بهذه القصة العاطفية الرقيقة، وبالاخلاص الهائل
المتفاني للمرأة التي احبها منذ البداية. قالت لمارجريت بصوت رقيق
ناعم:

- اشكرك كثيراً على ابلاغي هذه التفاصيل كلها. فالشخص
الذي اطلعني على القصة كان مخطئاً تماماً... قالت لي انك تزوجت
جان لتكوني قرب ارمون. ولكن هذا الكلام ليس صحيحاً، لان
جان لم يكن يعمل هنا عندما تزوجتها...
- العكس هو الصحيح، يا حبيبتي. فمن بين الاسباب التي حدت
بارمون ليطلب من جان الانتقال الى شامبورتن وتولي ادارة اعمالها،
رغبته في رؤيتي بين الحين والآخر. لم اعرف هذه الحقيقة الا عندما
اخبرني اياها ارمون بنفسه، بعد مضي سنوات على انتقالنا الى هنا.
فالتي اخبرتك خلاف ذلك، لا بد انها تعمدت الكذب لتشويه

سمعتي والحط من قدري وكرامتي امامك.
عصف الاحراج بوجنتي ايلاين الشاحبتين، لأنها لم تتمكن من
اخفاء ردود فعلها على تلك الملاحظة الصحيحة والذكية. احنت
رأسها خجلاً، فضحكت مارجريت فجأة وقالت:
- كم اتمنى معرفة السبب الذي حمل تلك المخلوقة على الادلاء
بهذه المعلومات الكاذبة والمضللة. لقد تأكد لي منذ بداية حديثنا، ان
الشخص المقصود هو امرأة تسعى الى الانتقام... لأنها تعرضت
للانتقاد، للتأنيب، واكثر من ذلك كله... للرفض.
ضحكت مارجريت مرة ثانية عندما شاهدت نظرات الدهشة
والاستغراب في عيني ايلاين، ومضت الى القول:
- لا تقلقي، يا عزيزتي، فانا لست عالمة بامور الغيب او قادرة على
قراءة افكار الآخرين. كل ما في الأمر انني خبيرة الى حد ما بعقلية
الناس وتصرفاتهم. ألم تكن سولانج بورجيه هي التي حدثتك عني؟
هزت ايلاين رأسها بذهول بالغ، ولم تتمكن للمرة الثالثة على
التوالي من الرد او التعليق على كلام مارجريت. لم تضحك السيدة
العادلة هذه المرة، ولكنها تنهدت بانقباض وقالت:
- كنت اخشى ذلك، وكان من واجبي تحذيرك منها في حينه.
اقلقتني محاولاتها للتقرب منك ومصادقتك، ولكنك بدوت سعيدة مع
بيار... وتصورت ان الحب سيحميك منها.
ظهر الارهاق بجلاء في وجه مارجريت وعينيها، فاحست ايلاين
بوخز الضمير تجاه حماتها... وبرغبة قوية في التكفير بعض الشيء
عن التفكير بها بتلك الطريقة المشينة. قالت لها بصدق
واخلاص:
- انت متعبة جداً، يا خالتي مارجريت. لماذا لا تأخذين الآن
قسطاً وافراً من الراحة، فيما اذهب انا للجلوس في غرفة الخال
ارمون. اخبريني فقط عن الخطوات المطلوبة، اذا استيقظ واراد
شيئاً.

- شكراً لك، يا ايلاين، على هذا الاقتراح الكريم. انا حا
منهكة الجسم والأعصاب، بسبب سهري طوال الليلة الفائتة
وسأقبل اقتراحك بكل سرور، اذا وعدتني بايقاظي في حال حدوث
اي تطورات غير عادية.

- اعدك بذلك.

- اذا استيقظ، اجلسي على حافة سريره... اصغي اليه...
امسكي يده... اظهري له انك مهتمة به وتحبينه. ابلغيني فوراً ا
شعرت بانه متألم، أو على الأقل اطلعي الممرضة الأخرى التي ت
الآن في الغرفة المجاورة. سأطلب من جاك احضار طعامك الى غرفة
ارمون. اوه، ايلاين، ستشعرين بالضجر والملل وانت جالسة لا
تفعلين شيئاً... ساعة بعد ساعة.

ابتسمت ايلاين، وقالت لها بصراحة:

- هذا ما أتوقعه، ولكنني اعتقد ان الوقت قد حان كي ابدأ انا في
مساعدة الآخرين.

بادلتها مارجريت الابتسامة بأحلى منها، ثم قبلتها وقالت:

- انت هنا، ونحن سعداء بوجودك... نحن جميعاً، ايتها
الحبيبة. وآمل من صميم قلبي في أن يكون كلامك لخالك عن
البقاء، جدياً ونابعاً من القلب. فهذا هو بيتك، يا عزيزتي.

اخذت مجلتين جديدتين وذهبت الى غرفة خالها، ولكنها لم تتمكن
من تركيز عقلها أو اهتمامها على أي من الموضوعات الشيقة والمثيرة
فيهما. احضر لها جاك طعام الغداء بعد حوالى نصف ساعة، فتناولته
بشيء من العصبية... وهي تفكر بأقوال تلك المرأة الخبيثة اللعينة،
سولانج. دخل بيار حوالى الواحدة والنصف، ووقف قرب سرير
الرجل المريض ثم قال:

- يبدو مرتاحاً كثيراً في نومه، وكأن جميع مشاكله قد حلت
اخيراً... وبخاصة بعدما أبلغته بأنك باقية بصورة نهائية.

- انت لا تريدني ان ابقى، أليس كذلك؟ لم تكن ابداً راغباً في

عودتي.

- وماذا يحملك على هذا الاعتقاد؟

- لم تأت لمقابلتي في المطار.

- ماذا دهاك الآن، يا ايلاين؟ ألم أخبرك عن سبب التأخير؟ كنت
مع صديق قديم خدمت واياه عامين كاملين في الجندية، فطالت
سهرتنا عن غير قصد ونحن نستعيد ذكريات الماضي.

- حاولت الاستفسار منك امس عن سبب عدم تجاوزك سيارتي
وابقائي، فاجبتني بلهجة غامضة. فما علاقة السهرة الطويلة حتى
الفجر، بعدم تجاوزي... مع انك كنت قادراً تماماً على ذلك؟

- ها قد عدت ثانية، ايتها العزيزة، الى تصرفاتك السابقة.
تتخيلين بعض الأمور، ثم تتخذين مواقف وقرارات معينة... بناء
على هذه التخيلات.

- هذا غير صحيح اطلاقاً، فانا لا اريد الا معرفة الحقيقة. انت لا
تريدني هنا، وترفض مع ذلك البحث في موضوع الطلاق. لماذا
تتهرب دائماً من الخوض في هذه المسألة، على الرغم من اصراري
المتزايد لمعرفة السبب الحقيقي لهذه التصرفات المتناقضة؟

- اهدأي، فسوف تزعجين خالك. هل تعتبرين ان غرفة ارمون
هي المكان الصحيح لبحث مشاكلنا الزوجية؟

هبت واقفة وهي تتمتم بكلمات مبهمة، ثم توجهت نحو
النافذة، لحق بها بيار، وسألها عن قرارها فيما يتعلق بالسيارة الصغيرة
المستأجرة. هزت كتفيها ولم تجبه، فقال لها بلهجة مرحة يغلب عليها
طابع السخرية:

- سأساعدك في اتخاذ القرار المناسب. يوجد فرع للشركة في
انجولام، وقال لي مديره قبل قليل انه مستعد لارسال السيارة غداً الى
باريس مع احد موظفيه... اذا كنت راغبة في اخذها له بعد ظهر
اليوم.

- هل انت مصمم على أن اتخلى عنها؟

- انا مجرد فلاح مقتصد لا يحب التبذير، ويحاول فقط اقناعك
بتوفير بعض النفقات غير الضرورية. فانت لست بحاجة الى هذه
السيارة أثناء اقامتك هنا، اذ توجد سيارات اخرى يمكنك
استخدامها في أي وقت ولاي غرض... حتى اذا اردت الهرب
مجدداً. وعليه، فهدفي مادي بحت.
- لا اقدر على الذهاب الى انجولام هذا اليوم، لأنني وعدت الخالة
مارجريت بالبقاء مع خالي حتى تتمكن هي من النوم بعض الوقت.
- لا بأس، سآخذ السيارة بالنيابة عنك. على اي حال، كنت
انوي الذهاب الى انجولام بعد ظهر اليوم.
- كيف ستعود اذن، بعد أن تترك السيارة هناك؟
- اوه، انك تفكرين احياناً على ما يبدوا لا تقلقي، فسوف اتدبر
امري... هذا اذا اردت العودة الليلة. اما اذا قررت البقاء هناك
خلال الليل، فلن اعود الا في وقت متأخر من قبل ظهر غد بسبب
العطلة الاسبوعية. هل سوي الأمر اذن؟
لم تهمها السيارة ونفقاتها، بقدر ما همها موضوع بقائه أثناء الليل
في انجولام. هل سيمضي الليلة في شقة سولانج؟ اللعنة! قالت له
متمتمة:
- نعم، أعتقد ذلك.
- آمل في أن تقضي وقتاً طيباً مع مريضك، وشكراً لك على
مساعدة امي. سأراك في وقت لاحق.
- في وقت لاحق؟ ستعود الليلة اذن؟
استدار نحوها بعد خروجه من الباب ونظر اليها بتحد، قائلاً
بصوت رقيق ناعم:
- وهل يهمك اذا عدت الليلة أو لم اعد؟ كنت واضحة جداً معي،
عندما قلت لي انك تفضلين النوم على انفراد. الى اللقاء، يا زوجتي
العزيزة.
فتحت الباب الذي اغلقه وراءه بهدوء، وهي تشعر برغبة جامحة

في اللحاق به. ولكن... ماذا ستقول له عندئذ: هل ستعترف له
بانها مهتمة كثيراً بأمر عودته هذه الليلة، وبانها لا تريد النوم وحدها؟
هل يمكنها الافصاح له عن استعدادها التام لاستضافته في ذلك
السرير المزدوج، وللقيام بأي شيء للحيلولة دون تمضيته الليل مع
سولانج؟ اوه، يا لهذه الغيرة القاتلة التي تثبت بشكل قاطع...
انها... تحبه، وتريده ان يبادلها هذا الحب!
دخل حياتها قبل سنة، وتملكها بصورة تامة... قلباً وروحاً
وجسماً. وها هو الآن، وبعد أقل من اربع وعشرين ساعة على
وصولها، يعيد الكرة. هل فشلت جميع محاولاتها خلال الأشهر
التسعة الماضية لنسيانه، ولطرده من حياتها... وقلبها؟ تصورت انها
نجحت في ذلك واصبحت على وشك التعلق برجل آخر، ولكن
ساعات قليلة معه احبطت كافة المحاولات والجهود لمقاومة سيطرته
وهيمنته عليها!
- ايلاين؟ هل لا تزالين هنا؟
- نعم، يا خالي.
- عظيم. انا سعيد ببقائك هنا. ثمة اشياء كثيرة اريد اطلاعك
عليها، وبخاصة وصيتي.
- لا تتعب نفسك ابداً، يا خالي، بالتحدث عن موضوع كهذا.
- بل، يا عزيزتي، فمن الضروري جداً ابلاغك كافة التفاصيل.
اريدك أن تبقي هنا مع بيار... وتظلي زوجته. اذا هجرته مرة اخرى
أو طلقته، ستفشل خطتي... وستتحول شامبورتن الى ايد غريبة.
ايلاين، انا اعتمد عليك. اريدك ان تبقي هنا وتحافظي على تقاليد
عائلتنا، ولكنك لن تتمكني من ذلك وحدك ودون مساعدة بيار.
- ارجوك، يا خالي، لا ترهق جسمك واعصابك. دعني اتحدث
اليك واخبرك عن عملي، فسوف يسرك ذلك الى درجة كبيرة. يقول
تشارلز انني اصبحت خبيرة في المجالات الزراعية، ولدي معلومات
وافرة ووافية في حقل التسويق وادارة الأعمال.

- انا سعيد جداً، يا حبيبتي، فهذه دماء سان فيران التي تجري في
عروقك. ولكنه يتحتم عليك... عليكما انت وبيار، انجاب
طفل... لا، اطفال عدة. لو بقيت هنا، يا ابنتي، لكنت الآن في
مرحلة متقدمة من الحمل... وكنت سأشاهد حلمي يتحقق امام
عيني... وقبل مماتي. لن افهم ابداً سبب هجرك لبيار. لا افهم
اساليب شابات هذا العصر، ولكنك عدت وستبقين. واذا كان بيار
من تلك الطينة من الرجال، التي اعتقد جازماً انه منها، فلن يدعك
تتركينه مرة اخرى. ابقي معه، لتنجبي وريثاً لشامبورتن.
تنهد بحسرة ومرارة وارتجفت يده الضعيفة الممسكة بيدها، ثم
اضاف بلهجة حزينة مؤثرة:
- كنت اتمنى من صميم قلبي ان احمل طفلكما الاول على الاقل بين
ذراعي، واضمه الى صدري بنفس المحبة والحنان اللذين اكنهما لك.
ولكني اعرف الآن انني لن اكون هنا عندما يولد ذلك الطفل الحبيب.
احست ايلاين برغبة في البكاء. ها هو خالها المحتضر ينتظر منها
رداً ايجابياً، ولكنها لم تتمكن من الزام نفسها بوعد كهذا. قالت له
بصوت مرتجف:
- انا احب الاطفال، يا خالي، ولكن الانجاب قد لا يكون ممكناً
بصورة دائمة.
- ماذا؟ ماذا تعنين بانه ليس ممكناً؟ انت شابة قوية وتتمتعين
بصحة جيدة، وبيار رجل اكثر من طبيعي... جسمياً وعقلياً. هل
تحاولين الايحاء لي بانك امرأة باردة جامدة متحجرة، لا تشعر بأي
تجاوب مع الرجل؟ اذا حاولت ذلك، فلن اصدقك... لانني كنت
اراكما في الصيف الماضي بأم العين تتبادلان العناق المحموم حتى قبل
زواجكما. انت لا تعانين من اي مشكلة، ايتها الحبيبة، اليس
كذلك؟ آه، رباه، ستكون القشة التي ستقصم ظهر البعير... اذا
قلت لي، لا سمح الله، انك... عاقر!
خجلت ايلاين من كلام خالها، وسرها ان ما من احد يسمع

كلامه ويشاهد احمرار وجنتيها. لم يتحدث معها اي انسان من قبل،
وبخاصة الرجال، بمثل هذه الصراحة المتناهية... عن امور
شخصية الى هذه الدرجة. وادهشها اكثر من ذلك صدور هذا
الكلام عن خالها العجوز، الذي كانت تعتبره دائماً رمزاً للتعقل
والحكمة والجدية. قالت له بتردد:
- لا... لا اعتقد ذلك.
- هذا يعني انك لست متأكدة. سنعرضك على الطبيب سيرفين
لاجراء المعاينات والفحوصات الضرورية، ولمعالجتك في حال...
- لا، اوه، لا حاجة لذلك ابداً. فأنا لا اعاني اطلاقاً من اي شيء
من هذا القبيل، يا خالي. صدقني، فصحتي بخير والحمدلله.
- لماذا أوحيت اذن بانكما لن ترزقا اطفالاً؟ انت هنا الآن... انت
زوجته وعلى وفاق معه، فماذا يحول دون ممارستكما مهامكما الزوجية
و... و...
لم يتمكن من اكمال جملته، نتيجة لنوبة السعال الحادة التي
انتابته. قفزت ايلاين من مكانها، ثم انحنت فوقه وقالت بلهفة
صادقة ومذعورة:
- ارجوك، يا خالي، اهدأ وخفف من توتر اعصابك. سيكون كل
شيء على ما يرام... اعدك بذلك. سأحقق رغبتك، باذن الله.
توقف السعال، ولكن صدره الضعيف ظل يعلو ويهبط...
وكأنه غير قادر على التنفس. اختفى اللون تماماً من شفتيه المرتجفتين،
وحل ازرقاق مرعب محل الشحوب والاصفرار في وجنتيه. سألته
بخوف وذهول:
- هل انت بخير؟ هل تشعر بألم؟ هل اوقظ الممرضة أو خالتي
مارجريت؟
ضغط على يدها بقوة لم تكن تتوقعها، وقال لها:
- لا، لا، يا ابنتي. ساكون بخير خلال لحظات. لقد وعدتني
الآن، وهذا يريحني ويسرني. إن لم تبقيا معاً ويرزقكما الله عز وجل

طفلاً، أو بالأحرى مجموعة اطفال ، فلن يتحقق حلمي . . .
اغرورقت عيناه المتعبتان بالدموع التي بللت خديه ووسادته.
فسألته:

- أي حلم، يا خالي؟
- الحلم اياه، الذي يراودني منذ سنوات عديدة، الحلم بولا
طفل تجري في شرايينه دماء عائلة سان فيران . . . ودماء المرأة التي
احببتها. انت تعرفين انها تزوجت رجلاً آخر . . . تزوجت جا
دوروشيه، ومع ذلك فقد بقيت احبها عن بعد . . . كاولئك الفرسان
المساكين في قصص الفروسية والغرام. هل تذكرين، يا ابنتي، تلك
القصص التي اخبرتك اياها عن اغاني شهداء الحب؟
- نعم اتذكرها ، يا خالي. واذكر ايضاً بوضوح شبه تام، ان
اغنيتي المفضلة كانت تلك التي تتحدث عن الوردة العاشقة.
- وأنا كذلك، كنت احبها كثيراً. اعذريني الآن، ايتها الحبيبة،
فاني متعب للغاية وسأنام خلال لحظات. اشعر بارتياح بالغ،
وبخاصة من الناحية النفسية، ولا يهمني بعد الوعد الذي قطعته على
نفسك امامي . . . ما اذا كنت سأنام الى الأبد ام لا.

دقت الساعة الرابعة، ففتح باب الغرفة ودخلت مارجريت ثم
لحقت بها ماري . . . التي كانت تحمل صينية الشاي. طلبت سيدة
القصر من الخادمة الشابة ان تضع الصينية على الطاولة القريبة من
النافذة، ثم تطلعت نحو ارمون وقطبت حاجبيها. امسكت بمعصمه
لجس نبضه، وقالت:

- نبضه ضعيف للغاية. ماذا كان يفعل؟ يتحدث؟
- نعم. تحدث طويلاً، وبانفعال وتأثر، عن وصيته. حاولت
جاهدة ثنيه عن متابعة الكلام، فلم انجح كثيراً.
- هل دخلت معه في جدال حول الوصية؟ انه يشعر بارتباك شديد
كلما تحدث عنها.
- لا، لم افعل ذلك اطلاقاً، ولكنه اصر على معرفة السبب الذي

يحول دون انجابي طفلاً! قال ان حلمه لن يتحقق ما لم نرزق اطفالاً.
- انه يتحدث عن هذا الموضوع باستمرار، ويتصور انه قادر على
تنظيم حياتكما كما يريد أو يتمنى. مسكين ارمون . . . فهو طيب
القلب ورقيق المشاعر الى حد كبير. هيا، يا عزيزتي لنشرب الشاي،
من المؤكد ان حديثه عن الأطفال قد ازعجك.

سألتها ايلاين بعد قليل عما اذا كانت تعرف شيئاً عن الوصية،
فاجابتها مارجريت بهدوء:

- لا ، فهو يحب الابقاء على سريتها. . . مع انه يتحدث عنها
باستمرار. اعد هذه الوصية في العام الماضي، وبعد فترة قصيرة جداً
من زواجكما.
- هل يعرف بيار محتويات الوصية؟
- ربما، ولكنه لم يذكر لي اي شيء من هذا القبيل. اذا كان الأمر
يزعجك او يقلقك، فلماذا لا تسألينه بنفسك؟ لقد قمت اليوم
بنصيبك من اعمال الخير، فلماذا لا تذهبين الآن وتتمتعين بما تبقى
من ساعات النهار والسهرة!

الرابعة والنصف تماماً . . . ربما لم يترك شامبورتن بعد. قالت:

- اعتقد انني سأفعل ذلك. هل سأراك اثناء العشاء؟
- لا ، ليس هذه الليلة. سأتناول طعامي هنا، لأفسح لكما المجال
بالانفراد معاً. . للتعويض ولو جزئياً عن الأوقات الثمينة التي
فقدتماها. هيا، اذهبي الآن.

غادرت ايلاين الغرفة على عجل لتحول دون ذهابه الى انجولام،
والا فلن يتمكنا من تناول العشاء على انفراد . . . ولن تسنح لها
فرصة كهذه للتحدث معه وتوجيه عدد كبير من الأسئلة الهامة اليه.
لن تدعه يذهب الى سولانج. ولكن . . . سيارة الرينو لم تعد هناك.
قال لها جاك ان السيد بيار غادر شامبورتن قبل نصف ساعة تقريباً،
وسألها عما اذا كانت تسمح له بتقديم الطعام في وقت مبكر نوعاً
ما . . . لأنه سيذهب وزوجته الى انجولام ايضاً لحضور مسرحية

فكاهية. قالت له بصوت حزين:

- بالتأكيد يا جاك. سأقوم الآن بنزهة في الحديقة. ابلغني عندما يكون الطعام جاهزاً.

٥ - الصدمات تتوالى

جلست ايلاين الى المائدة الطويلة، في القاعة ذات السقف العالي، لتتناول طعامها على انفراد. شعرت بأنها صغيرة ووحيدة جداً في تلك القاعة الضخمة، مع ان الطعام كالعادة كان شهياً للغاية وجاك يقف متأهباً لخدمتها والسهر على راحتها.

لماذا كل هذا التعب والازعاج لأجل شخص واحد، بخاصة هي نفسها التي اعتادت على حياة عادية بعيداً عن التكلف والشكليات؟ الم يكن بامكانها مثلاً أن تعدّ طعامها وتتناوله في المطبخ، كي يتمكن جاك وزوجته من الذهاب في وقت مبكر؟ ولكن وظيفتها تقضي باعداد الطعام وتقديمه، وان لم يفعلا ذلك... فماذا سيفعلان؟

لا بأس احياناً بقليل من الرفاهية والعظمة، ولكن الوقت الآن ليس مناسباً أبداً. فهي تحس بوحدة قاتلة وتشعر بأنها رهينة... رهينة حلم خيالي لرجل عجوز، ورهينة زواج من رجل لا يحبها. هل هذا هو هدفها في الحياة؟ هل هي حقاً مسؤولة عن تحقيق حلم خالها ارمون؟

اخذ جاك صحنها الفارغ من امامها، في الوقت الذي تحولت فيه افكارها نحو بيار. هل يشعر هو ايضاً بانه رهينة، رهينة زواج من امرأة لا يحبها... رهينة طموحه واحلامه؟ مسكين بيار... مسكينة ايلاين، فهما واقعان في شرك يصعب التخلص منه. احست برغبة في البكاء، ولكنها سمعت جاك يقول لها:

- سيدتي، وضعت لك صينية القهوة في قاعة المكتبة.
- شكرا يا جاك. يمكنك الذهاب وزوجتك الآن.

كادت تضحك بصوت عال، بسبب اللهجة الرسمية التي غلبت على كلامها. هكذا تتحدث سيدة القصر في القصص والروايات... السيدة الحزينة التي تتناول طعام العشاء وحدها، لأن زوجها ذهب في زيارة مبهمة. فتح جاك الباب بهدوء وقال لها بتهذيب واضح:

- تصبحين على خير، يا سيدتي.

ابتسمت له، وقالت:

- تصبح على خير، يا جاك. اتمنى لكما مسرحية جيدة ووقتاً ممتعاً.

القت نفسها على مقعدها المفضل، وراحت تحدق بابريق القهوة وتفكر بالليلة السابقة. كان بيار جالساً معها. صحيح انه لم يتحدث الا نادراً، ولكنه كان هنا... قربها. اما الآن فهو مع سولانج في انجولام، فيما هي جالسة وحدها حزينة يائسة.

صبت فنجاناً من القهوة وشربته دفعة واحدة، دون اضافة القطعتين المعتادتين من السكر... وذلك كي تساعدها المرارة الشديدة على الاستفاقة من ذهولها. اوه، يا لهذا الصمت الرهيب الذي يغلفها من كل جانب! تباً لهذه الوحدة المؤلمة التي تشكل عبئاً ثقيلاً على كاهلها، وتغرقها في جو من الكآبة لم تعرف له مثيلاً من قبل.

لم تعد قادرة على تحمل هذا الشعور الخانق، واحست برغبة للتحدث مع... مع أي انسان يمكنه تفهم وضعها ومساعدتها على التخفيف من آلامها. هذا هو الوقت المناسب للاتصال بجيرالد، لابلاغه عن اضطرارها للحصول على اجازة طويلة. صبت فنجاناً آخر من القهوة ثم حملته الى المكتب الخشبي الأنيق، ووضعته قرب جهاز الهاتف، لتشربه أثناء انتظارها المكالمة مع لندن. اتصلت بمركز الهاتف، واعطت احدى العاملات فيه رقم الهاتف في شقة جيرالد.

اوصلها المركز بعد دقائق معدودة بالرقم المطلوب، فوضعت فنجانها على الطاولة وانتظرت سماع صوت جيرالد بين لحظة واخرى. ولكن عاملة الهاتف الفرنسية نصحتها بعد فترة معينة بمحاولة الاتصال في وقت لاحق، لأن ما من احد على ما يبدو سيرد على المكالمة الحالية. جيرالد ايضاً موجود خارج بيته! لم لا؟! فيوم غد هو عطلة اسبوعية وهذه الليلة مخصصة للسهرات! ربما ذهب لزيارة بعض الاصدقاء أو لحضور حفلة موسيقية، او ربما يكون الآن مع امرأة اخرى... مثلما يفعل بيار!

حولت ايلاين افكارها فجأة، وبصورة متعمدة، عن المسار الذي انطلقت فيه... رأفة بقلبها وبمشاعرها. طلبت من موظفة الهاتف رقماً آخر في لندن، وما هي الا دقائق قليلة حتى اجري الاتصال بشقة ابن عمها تشارلز وسمعت بارتياح صوتاً ناعماً يقول:

- جيني كوبر.
- مرحباً، يا جيني. هل تعرفين من يتحدث معك؟
- اوه، ايلاين. كيف حالك ايتها الحبيبة؟ وكيف حال الخال ارمون؟
- انا بخير، والحمدلله، ولكن الخال ارمون ليس على ما يرام. اعتقد انه لن يتمكن من مقاومة المرض والشيخوخة فترة طويلة.
- آسفة لسماع ذلك... فهو رجل طيب للغاية.
- جيني، لن اتمكن من العودة في الوقت الراهن. وعدت بالبقاء حتى النهاية... وهي لن تطول كثيراً على ما اعتقد. أنت تتفهمين الوضع على حقيقته، اليس كذلك؟
- طبعاً، يا حبيبتي. سانقل رسالتك الى تشارلز، ليبلغهم في المكتب انك لن تحضري الى العمل صباح الاثنين.
- شكراً. حاولت الاتصال بجيرالد لابلاغه المعلومات ذاتها، ولكنه لم يكن في شقته
- صحيح، فقد اخذ اجازة لبضعة ايام وذهب في رحلة بحرية.

اعتقد انه اتخذ قراره هذا بصورة مفاجئة، وفي اللحظة الأخيرة. قال انه قد يذهب الى فرنسا، ولكني لا اعرف ما اذا كانت لوسي ستوافقه على هذا الرأي.

هل بدأ جيرالد يغازل لوسي، شقيقة جيني الصغرى، التي تكبرها بعام واحد؟ تمتمت ايلاين ببضع كلمات عادية تعليقاً على كلام جيني، فمضت الأخرى الى القول:

ـ اتصور انهما قررا القيام بهذه الرحلة البحرية، لأن الطقس رائع للغاية. كيف حال الطقس عندكم؟

ـ حار وجاف جداً.

ـ هذا الطقس بالذات يناسب كروم العنب... الأمر الذي يذكرني ببيار. كيف حاله هذه الأيام؟

ـ بخير، شكراً.

ـ هل من أمل في اعادة الأوضاع بينكما الى سابق عهدها؟

ـ اوه، جيني، لا يمكن بحث مثل هذا الموضوع الجدي أثناء مكالمة هاتفية!

ـ حسناً، يا حبيبتي، سنبحثه في وقت لاحق. كنت اتمنى فقط أن تتم المصالحة بينكما، وتتمكنا من العيش معاً بوفاق وغبطة. على أي حال، ستكتبين لنا أو تتصلين بنا لاطلاعنا على التطورات الصحية لخالك. اتصور ان وفاته ستحدث ضجة كبيرة عندكم، بما انه ليس لديه أي وريث مباشر.

ـ سيحدث ذلك بالتأكيد. وداعاً، يا جيني.

ـ وداعاً، يا حبيبتي، واهتمي بنفسك.

عادت ايلاين الى مقعدها، وهي تشعر بوحدة اكثر ايلاماً من قبل. جاك وزوجته في طريقهما الآن لحضور مسرحية فكاهية... الخادمة الحلوة ماري موجودة مع صديقتها، أو على الأقل مع رفيقاتها. وجيرالد على ظهر سفينة سياحية فخمة، أو في نادٍ على الساحل الفرنسي مع بعض الأصدقاء... ولوسي.

نعم، لقد لاحظت اكثر من مرة مدى اهتمام لوسي بجيرالد. لو لم تحضر الى شامبورتن، لكان جيرالد دعاها هي على الأرجح لمرافقته في هذه الرحلة الرائعة. اوه، ليس هذا الأمر هاماً على الاطلاق! فالشيء، الذي يؤذيها كثيراً ويجرح شعورها، هو جلوسها هنا على انفراد في حين يمضي بيار السهرة الاسبوعية، وبقية الليل، مع سولانج.

يا لسخرية الأقدار وظلمها! لو كانت تعيش هنا مع بيار وحده، وبالوفاق التام الذي تتمناه من صميم قلبها، لما كان القصر موحشاً الى هذه الدرجة المذهلة. لو كان ذلك الأمر ممكناً، لكان اولادهما يسرحون ويمرحون مع بعضهم ومع الأصدقاء الكثر... فيما تقيم هي وزوجها الحفلات والمآدب والسهرات.

وضعت يديها على رأسها وضغطت بقوة، لكي تتمكن ولو قليلاً من تخفيف الصداع الحاد الذي بدأ يزعجها ويقلقها. اللعنة! ها هي تغرق مجدداً في بحر من العواطف الرقيقة، وتحاول التعلق بتمنيات ليست اكثر من مجرد أضغاث احلام. لن تقدر على الوفاء بوعدها لخالها ارمون، لأن الظروف الحالية لا تسمح لها بتاتاً بالبقاء في شامبورتن بعد وفاته والعيش مع بيار... كزوجة!

سمعت ساعة الحائط تدق تسع مرات، فاستفاقت من ذهولها. ستذهب الى غرفتها، حتى في هذا الوقت المبكر، فالقصر غارق في صمت كئيب، ورائحة المرض، وربما الموت، تعبق بين جدرانه وفي قاعاته وممراته.

استحمت للمرة الثانية وتعمدت البقاء فترة طويلة في الماء الساخن، لتريح جسمها وأعصابها بعض الشيء. ارتدت ثياب النوم الرقيقة الشفافة، وسرحت شعرها وتعطرت... ثم ضحكت. لماذا هذا الاغراء كله، وهي ستنام وحدها... فيما سينام الرجل الذي تحبه مع المرأة التي يحبها؟

اطفأت نور الغرفة بعصبية، وذهبت الى النافذة المفتوحة. ضوء

القمر الساطع، صفاء السماء ودفء الجو، هدوء الليل، عطر الورود الفواح... وعصفور يغني! ليلة صيف رائعة ومثالية... ليلة من الظلم والاجحاف تمضيها على انفراد! أين العدل والانصاف؟ انها ليلة للحب... للمحبين والعاشقين، وليست للعزلة والوحدة!

تأوهت بحزن وألم، وركضت بسرعة نحو سريرها. استلقت على ظهرها وراحت تحدق بسقف الغرفة، علّها تتمكن من طرد تلك الأفكار الحزينة والموجعة من راسها. وفجأة، انهمرت الدموع بغزارة من عينيها وأخذت تبكي بمرارة لم تشعر بمثلها من قبل. سيساعدها البكاء على النوم... وسينقذ عواطفها المنهكة من براثن الانهيار.

سمعت صوت باب يغلق بهدوء، فلم تتحرك من مكانها أو ترفع راسها عن الوسادة المبللة بدموعها. ربما نامت لحظة وحلمت... ربما تخيلت انها سمعت ذلك الصوت. استدارت نحو الباب... فشاهدت ظلاً يتحرك في الغرفة! كادت تصرخ من شدة الفزع، ولكنها سيطرت على اعصابها قليلاً وقالت بصوت مرتعش هامس:

- من هنا؟
- انا... بيار.

جلست في سريرها، وسألته بشيء من الحدة والانفعال:

- ماذا تفعل هنا؟

تحرك من مكانه قليلاً، فلاحظت بهلع واستياء بالغين انه يبدل ثيابه. ثم قال لها ضاحكاً:

- يمكنني توجيه السؤال ذاته اليك. ألا تذكرين انك عرضت علي تبادل الغرفتين، نظراً لصغر حجم السرير الآخر؟ ذهبت الى غرفة الحضانة لاحضار بعض الأشياء، فوجدت السرير خالياً. لم تكوني في قاعة الجلوس أو في غرفة خالك، فتصورت انك ذهبت الى مكان ما. أتيت الى هذه الغرفة للنوم.

توقف لحظة، ثم مضى الى القول بلهجة ساخرة كعادته في مثل هذه الظروف:

- هل يعني وجودك هنا، انك غيرت رأيك مجدداً وقررت مشاركتي هذا السرير الكبير؟ هل تريدين انهاء ما بدأته صباح اليوم؟
- انا لم ابدأ اي شيء هنا هذا الصباح.
- حقاً؟ تكوّن لدي انطباع آنذاك بأنك تريدينني، لولا دخول ماري المفاجىء. ولكن... ماذا تفعلين هنا اذن؟

صرخت احاسيسها بألم، طالبة منها تحقيق ما كانت تتمناه قبل فترة وجيزة. شعرت بحرارة الرغبة تلهب عواطفها ومشاعرها، ولكن عقلها رفض الرضوخ والاستسلام، ستذهب الى الغرفة الأخرى... وتنام وحدها. بدأت تتحرك بهدوء نحو الجانب الآخر للسرير، لتتمكن من مغادرة الحجرة دون المجازفة بالاقتراب منه. تحرك السرير قليلاً، فتأكد لها انه جلس عليه. قالت له بتلعثم واضح:

- نسيت... انني تقدمت... بذلك الاقتراح. سأذهب الآن... الى الغرفة الأخرى.

تسللت خارج السرير، واستدارت حوله لتذهب نحو الباب ولكن بيار اضاء النور المجاور له، وقفز باتجاهها معترضاً طريقها. أبعدت نظراتها عن صدره الأسمر الذي اظهره ضوء القمر كقطعة من النحاس الأحمر، وقالت له بلهجة جافة:

- ارجوك، دعني اذهب.
- اريد أولاً معرفة السبب الذي حملك على البكاء.
- كيف تعرف انني بكيت؟

أمسك بذقنها ورفع وجهها نحوه، قائلاً لها برقة:

- الوسادة مبللة، وعيناك محمرتان ومتورمتان. ماذا حدث، أيتها الحبيبة؟ هل بكيت لأنك شعرت بالوحدة؟ اهدأي الآن واطردي الأحزان من قلبك، فأنا هنا و...

أحست ايلاين فوراً بانه لا يزال قادراً على اثارة عواطفها. يعرف... يعرف اللعين انه يتمكن ساعة يشاء، وحتى بعد خلافهما

وفراقها، من السيطرة عليها بصورة مذهلة... صرخت به، وهي تضربه بقوة على كتفيه:

- توقف، توقف! لا تلمسني! لن اتحمل ذلك، وأنا اعرف انك كنت معها!

رفع رأسه ونظر اليها بعينين غاضبتين، وسألها:

- تعرفين مع من كنت؟ وكيف تعرفين، طالما انني لم أقل ذلك؟

- لست بحاجة لمن يخبرني. فعندما قلت لي انك ذاهب الى انجولام وقد تقضي الليلة هناك، علمت انك ستكون معها... مع سولانج. اوه، كيف تجرؤ على معانقتي فور عودتك من شقتها!

حدق بها فترة من الوقت، ثم قال لها بهدوء كالذي يسبق العاصفة:

- لم اكن مع سولانج.

- اذن كنت مع امرأة اخرى... اه!

صرخت ثم اختنق الصراخ في حلقها، وهي ترفع يدها لتتحسس الوجنة التي تلقت صفعته قبل لحظة وجيزة. لم تكن صفعة قوية، ولكن الوضع العاطفي الصعب الذي تمر فيه حالياً جعل تلك الضربة الخفيفة تبدو كلسع السياط. نظرت الى وجهه القاسي بعينين دامعتين، وسألته بصوت مرتجف:

- لماذا فعلت ذلك، يا بيار؟

- لأنني تعبت كثيراً من اتهاماتك واهاناتك.

تركها فجاة واسند ظهره الى الباب، فيما ظل يتأملها باستياء وانفعال. ثم عقد جبينه، ومضى الى القول مؤنبا:

- من أين تعلمت اهانة الناس؟ من لندن؟ من صديقاتك؟ أم من ذلك المدعو جيرالد، الذي كنت تكتبين له هذا الصباح؟

- اهانة؟

- نعم. فانت تهينيني دائماً في تخيلاتك وتصوراتك. هل تعتقدين انني رجل يجهل معنى الشرف والاستقامة والاعتزاز بالنفس؟ انا

لست من اولئك الرجال الذين يقفزون من هذا السرير الى ذاك، ومن احضان امرأة الى اخرى. لم اكن مع أي امرأة اطلاقاً. صحيح انني حاولت الاتصال بسولانج لسؤالها عن امر ما، ولكنها لم تكن موجودة في شقتها. ابلغني الموظف المسؤول عن المبنى الذي تقيم فيه، انها في باريس. تناولت العشاء في احد المطاعم وانتظرت خروج جاك وزوجته، لنعود معاً في سيارتي التي أعرتها اياها. هكذا اتفقنا قبل مغادرتي شامبورتن حوالى الرابعة، وهذا ما حصل بالضبط.

اخذ نفساً عميقاً، ثم تنهد ومضى الى القول:

- هل ترين؟ لقد قدمت لك الآن ما لم اقدم مثله ابداً لأي امرأة اخرى... قدمت لك تقريراً مفصلاً عن كافة تحركاتي لهذا اليوم... وعدت الى البيت. هل يمكنك المطالبة بأكثر من هذا، يا زوجتي الحبيبة؟

- ولكنك كنت ستبقى معها، لو انك وجدتها في شقتها. ألم تفعل ذلك من قبل؟ ألم تمض معها بعض الوقت في أواخر الخريف الماضي، عندما كان من المفترض انك ذاهب للقيام ببعض الأعمال؟

قال لها بلهجة حادة:

- هذا ما قالته لك سولانج، وانت قبلت كلامها دونما اي استفسار او...

- لا، لم يكن كلامها وحده فحسب، بل شاهدت بنفسي اثباتاً كافياً. ألم تترك قفازيك وقداحتك في شقتها؟

حدق بها بعض الوقت وكأنه لم يصدق اذنيه، ثم ضحك وقال:

- تساءلت مرات عديدة عن المكان الذي نسيت فيه هذه الأشياء العزيزة على نفسي.

مشى نحو منتصف الغرفة، حيث وقف لحظة ثم توجه الى النافذة مفسحاً لها المجال لفتح الباب والخروج منه دون أي اعتراض أو عائق. ولكنها احست فجاة بانها غير راغبة في مغادرة الغرفة، واستدارت نحوه وهي لا تدري ماذا تفعل أو تقول. قال لها:

- لو انك ابلغتني هذا الأمر في العام الماضي، لكان بامكاني ان اشرح لك سبب وجود القفازين والقداحة في شقتها.

- اوه، طبعاً. كنت ستجد لي بالتأكيد بعض الأعذار الرقيقة المقنعة، كما فعلت هذه الليلة. وكنت ستتوقع مني قبولها دون تساؤلات أو احتجاجات، لأنه يتحتم على الزوجة حسب رأيك التصرف على هذا النحو. يجب على زوجتك قبول ايضاحاتك، حتى عندما تكون متأكدة من كذبك ونفاقك.

لم تصدق انها تمكنت اخيراً من البوح بما يجول في خاطرها منذ بضعة اشهر، عوضاً عن ابقاء هذه الأفكار تتفاعل داخل عقلها وقلبها وتأكلها... كما تفعل الدودة عندما تهاجم تفاحة ناضجة.

استدار بيار نحوها بوحشية ظاهرة، فتراجعت الى الوراء خوفاً من تعرضها لصفعة اخرى. لاحظ ذلك، فقال لها:

- لا، لن اصفعك. لن امنحك فرصة لاضافة القساوة والعنف الى قائمة اتهاماتك واهاناتك لي.

ثم هز رأسه، وأضاف قائلاً:

- رباه، كيف وصلنا الى مثل هذه العقدة المستعصية! كل ما يمكنني قوله لك هو انني لم اكذب عليك قط عن سبب وجود القفازين والقداحة هناك، لانك لم تعطيني فرصة للكذب... لانك هربت.

تأملها بعض الوقت، وكأنه يدرس رد فعلها، ثم مضى الى القول:

- هل تسمحين الآن بأن اشرح لك السبب؟

احست ايلاين بأن للهجته المهذبة وقعاً في نفسها، أشد وأدهى من أي كلمات غاضبة ساخطة. اوحت تلك الجملة الهادئة بانها لم تكن عادلة معه، عندما رفضت قبل تسعة اشهر الاستماع الى تفسيره وتبريره لهذه النقطة البالغة الأهمية... وانه يمنحها الآن شرفاً لا تستحقه. خافت فجأة مما سيقوله لها، فتمتمت هامسة:

- الآن؟ وفي هذه الغرفة؟

- بالتأكيد. فهل ثمة مكان افضل من غرفتنا؟

حاولت التهرب من المواجهة المفزعة، فقالت بارتباك واضح:

- الوقت متأخر، وانا متعبة جداً.

- استلقي اذن على السرير، واعدك بأن الشرح لن يطول.

- ولكن...

لم يفسح لها المجال بمتابعة احتجاجها، اذ قفز نحوها بتلك السرعة التي ادهشتها دائماً... وضع الغطاء عليها حتى ذقنها، ثم جلس قربها وسألها بصوت هادىء قاس:

- ألست مرتاحة وجاهزة الآن بما فيه الكفاية، لتسمعي كلامي؟

ردت عليه بصوت منخفض:

- نعم، سأسمع.

ابتسم بمكر، وقال لها بتلك اللهجة الهادئة المزعجة ذاتها:

- عظيم. انا ممتن لك، لانك قررت أخيراً الاصغاء لما سأقوله. سنظل قادرين دائماً على تصحيح الأمور واعادة المياه الى مجاريها، مهما طالت فترة التأخير والارجاء. عليك أولاً التفكير ملياً، لأنني على وشك البدء بمحاولة جدية لانقاذ زواجنا... الذي يبدو انك مصممة على تحطيمه وتدميره.

ها هو يعود الى القاء اللوم عليها، ولديه بالتأكيد أسباب جوهرية تدفعه الى ذلك. سمعت ايلاين صوتاً خبيثاً في داخلها، يفسر لها الغرض الكامن وراء هذه المحاولة. أليس من مصلحته المادية البحتة مثلاً، أن يظل زواجهما قائماً؟

- كما تعلمين، ذهبت في اواخر الخريف الماضي لحضور احد المؤتمرات الهامة. وعند انتهاء المؤتمر، توجهت الى انجولام لزيارة محترف فني صغير وشراء احدى اللوحات المعروضة فيه. كنت انوي تقديمها لك كهدية بمناسبة عيد ميلادك. حضرت سولانج الى المحترف أثناء وجودي فيه، فطلبت منها بالطبع ابداء رأيها الفني في اللوحة التي اخترتها. قالت لي عندئذ انها انهت لتوها لوحة عن

السفن الشراعية الصغيرة في المرفأ الصغير لبلدة لاروشيل. تذكرت فوراً مدى اعجابك بالسفن، عندما زرنا تلك البلدة خلال رحلة شهر العسل. ذهبت الى محترفها لالقاء نظرة على لوحتها، وأمضيت هناك بعض الوقت في شرب القهوة وتبادل الأحاديث. . . وهذا أمر طبيعي للغاية، لأننا كنا في فترة ما صديقين. . .

قاطعته ايلاين بلهجة جافة، قائلة:

- اكثر من صديقين. . . كنتما عاشقين.

عقد جبينه ونظر اليها شزراً، ثم أمسك بمعصمها وقال لها مهدداً متوعداً بصوت هادىء:

- الا تريدين سماع بقية كلامي؟

هزت رأسها بسرعة، وحاولت تخليص معصمها من قبضته. ولكن أصابعه القوية ضغطت على المعصم الضعيف، فيما كان يمضي الى القول:

- لا انكر اطلاقاً انني اقمت معها مرة علاقة عاطفية، ولكن ذلك حدث قبل سنوات عديدة. لم تدم تلك العلاقة طويلاً، ولم تترك في نفسي بتاتاً أي اثر كبير أو صغير. اما سولانج، فكانت كما هي الآن. . . متحررة وطموحة وذات استقلالية ملحوظة. ذهبت الى باريس لتتعلم الرسم، ففقدنا كل اتصال. لم ارها أو اسمع منها شيئاً لمدة عشر سنوات، الى أن اتت الى شامبورتن في الخريف الماضي.

هز كتفيه، وكأن حديثه عن سولانج انتهى عند هذا الحد. ثم اضاف قائلاً:

- لنعد الى قصة اللوحة الفنية. اعجبتني، فاشتريتها واحضرتها الى البيت. واذا كنت لا تصدقين كلامي، فانظري في الجزء الثالث من هذه الخزانة. لا تزال قابعة في مكانها، بانتظار تقديمها لك. . . ربما في عيد ميلادك المقبل، اذا كنت لا تزالين هنا في ذلك الوقت. ومما لا شك فيه انني نسيت القفازين والتفاحة مع سولانج، نظراً لاستعجالي في العودة الى البيت.

حامت بعض فراشات الليل حول النور، فمد بيار يده واطفأه. غرقت الغرفة مرة اخرى في ظلام لا ينيره سوى ضوء القمر الذي تسلل اشعته الفضية بخجل عبر الأشجار وأغصانها. وفي الخارج، اهداها العصفور السعيد آخر اغنياته الرقيقة الحالمة. . . فحلّ صمت مرهق، لم يقطعه الا صوت بيار الهادىء:

- هل تصدقينني؟

احست ايلاين بأنفاسه الدافئة تدغدغ وجنتيها، وبيده تتحرك برقة وحنان من معصمها حتى مرفقها. شعرت بتيار حار يندفع من ذراعها الى بقية انحاء جسمها. حذرها عقلها فوراً من التمادي، فالرجل يستغل مجدداً قدرته على اثارة مشاعرها لتحقيق اغراضه والوصول الى اهدافه. ألم يتبّع نفس الاسلوب في العام الماضي، لاقناعها بالزواج منه؟ الا يحاول الآن خداعها بالطريقة نفسها، لكي تقبل بالبقاء زوجة له؟ قالت له ببرودة:

- ولكن سولانج اخبرتني انك لا تزال تحبها، وانك زرتها مرات عديدة منذ عودتها.

علق بيار على هذا الاتهام، بنبرة تحمل في طياتها شيئاً من المرارة:

- كانت تكذب. لماذا؟ الله اعلم.

- ليس من السهل علي ابداً معرفة من منكما يقول الحقيقة. قالت لي شيئاً، وأنت تقول شيئاً آخر. وعليه، فقد تكون انت ايضاً الذي تكذب.

أمسك بكتفيها وراح يهزها بعنف بالغ، فيما كان الشرر يتطاير من عينيه. قال لها، وقد استشاط غضباً:

- لماذا اكذب عليك؟ اخبريني لماذا؟

خافت مما قد يقدم عليه في ثورة الغضب العارمة هذه، فحاولت التخلص منه وهي تقول له بصوت ضعيف مرتجف:

- بيار، ارجوك، اتركني.

- لا، لن تهربي مني مرة اخرى. ستقولين لي الآن رأيك بصراحة،

عما سأجنيه من كذبي عليك بشأن سولانج.

هل يعرف انه يكاد يحبس انفاسها بصورة نهائية؟ هل يعرف ايضاً ان جسمها بدأ يتجاوب مع عواطفها، حتى على الرغم من محاولاتها اليائسة للسيطرة عليه؟ همست بصوت متهدج متقطع:

ـ انت... انت قلت لي بنفسك، انك تحاول الابقاء على زواجنا سليماً معافى.

ـ أين العيب في ذلك؟ اشرح لك موضوعاً، كان بالامكان شرحه بسهولة ويسر في العام الماضي... وبالتالي توفير مشاكل كنا بغنى عنها. اخبرك الحقيقة، فترفضين تصديقي. لماذا؟ لماذا؟

قالت له متهمة:

ـ لانك تعرف محتوى وصية خالي... لانك لم تتزوجني الا بعدما رشاك!

ـ يا للبلاهة! انت تعانين من الأوهام، ايتها الحبيبة.

اطبقت عينيها بقوة لتمتنع عن التجاوب مع الدعوة التي توجهها اليها نظراته... وانفاسه الحارة.

ـ مسكين قلبك، كيف يخفق بعصبية وانفعال! انت خائفة، ويحق لك ذلك. فأكثر من امرأة تعرضت للخنق، بسبب امور تقل اهمية عن موضوع عدم الثقة بالزوج. ولكنني اعرف الأسباب التي تجعلك تصرين على عدم تصديق كلامي... انت تريدين عذراً لانهاء زواجنا. هربت في العام الماضي، عندما اكتشفت انك لا تحبين البقاء معي كزوجة. وجاءت اكاذيب سولانج عني لتمنحك العذر المطلوب، لتعودي الى لندن... الى ذلك الرجل المدعو جيرالد. كنت تعرفينه قبلي، أليس كذلك؟

احست بالارتياح عندما نهض وجلس قربها. قالت له بلهجة حاولت تضمينها بعض ما تبقى في نفسها من عنفوان:

ـ نعم. كنت اعرف جيرالد قبل لقائنا في الصيف الماضي... فهو يعمل في شركة ابن عمي تشارلز. بعد طلاقه من زوجته، بدأ

يأتي الى آشلي اكثر من مرة في الاسبوع. دعاني... دعاني مرات عديدة الى رحلات بحرية وركوب الخيل، ومنافسته في كرة المضرب، أو حضور حفلات موسيقية ومسرحيات.

ـ يبدو انه من طبقة بريطانية رفيعة ومثقفة، ويناسب ذوقك ومزاجك على الأرجح اكثر من مزارع فرنسي عادي. قارنت بيننا، ففاز علي دون أي صعوبة. وكانت النتيجة الحتمية لذلك انك هجرتني... آملة في ارغامي على منحك الطلاق.

لاحظت ايلاين فوراً انه استغل الفرصة مجدداً وبدأ يلقي اللوم عليها، عوضاً عن الاقرار بذنبه والاعتذار عن الخطأ. قالت له بانفعال:

ـ لا، اوه لا، لم يكن هذا هو السبب. انا لم اتركك بسبب جيرالد.

ـ لماذا تركتني اذن؟ لماذا ذهبت قبل التحدث الي اولاً؟ بربك، يا ايلاين، الا يمكنك اعطاء سبب منطقي واحد لمغادرتك فرنسا قبل منحي فرصة لايضاح الأمور؟

أفلتت يدها من قبضته التي لم تعد قوية عليها، ثم رفعتها ويدها الأخرى الى وجهها لاخفاء معالم الالم والحزن والأسى. تذكرت الألم الذي شعرت به في شقة سولانج... الألم الناجم عن سقوط الأوهام، وانهيار الأحلام، وتحطيم الثقة. صرّحت باكية:

ـ لا اعرف. لا اقدر على تفسير مشاعري.

قال لها هامساً:

ـ آه! كم انت بيضاء وصافية، كالقمر... وناصعة البياض وباردة، كالثلج.

ـ اتركني... ارجوك.

لن تقوى على المقاومة. ضمها اليه، ثم قال لها بلهجة ماكرة خبيثة:

ـ لم تشعري اذن بأي رغبة تجاه ذلك اللندني المثقف، الا عندما

كنت بعيدة عني . . .

ـ لم اشعر تجاهه ابداً بأي رغبة! لا اريده اطلاقاً! اوه، لا اعرف ماذا اريد!

ـ اما أنا فاعرف ماذا اريد، يا حبيبتي.

سمعت ضحكة خفيفة تتردد متباهية، فتحول الشوق الى سخط والحنان الى غضب. احست بالاشمئزاز الشديد من افتراضه المتغطرس، بأنها ستذوب الآن بين يديه. صرخت به غاضبة، وهي تضرب كتفيه بيديها:

ـ اتركني! اتركني! كم اكرهك! سأذهب الى الغرفة الأخرى.

ـ لا، لن تذهبي. ستشعرين بالبرد والوحدة. انت الآن باردة، على الرغم من الدفء. جمّدت الكراهية دمك، وحوّلك البغض الى قطعة من ثلج.

ـ بيار، ارجوك، لا . . .

توقف احتجاجها عند هذا الحد. انه على حق، فهي تكره البرودة والجفاف والوحدة. شعرت في بداية الأمر بشيء من الخجل والتردد. ولم يعد يهمها في تلك اللحظات السعيدة سوى وجودها معه كجزء لا يتجزأ منه. . . قلباً وروحاً.

استيقظت ايلاين صباح اليوم التالي عندما احست بيد باردة تلامس كتفها. اخترقت الذكريات الحلوة لما حدث، في الليلة الفائتة، الغيوم الملبدة للنعاس الذي لا يزال يشل عقلها وتفكيرها. ومع ذلك، احست ببرودة وتأكد لها ان بيار لم يعد قربها.

ـ ايلاين، استيقظي.

ليس هذا الصوت صوته، ولا اليد الباردة التي لامست كتفها مرة اخرى يده. انها مارجريت! أمسكت بالغطاء، وهبت جالسة في السرير. شاهدت مارجريت مرتدية كامل ثيابها، فسألتها بقلق ولهفة:

ـ اوه، أين بيار؟

ـ اضطررت لايقاظه قبل بعض الوقت، لكي يذهب لاحضار الأب مارتين.

اوه! استدعاء الكاهن في مثل هذا الوقت المبكر، معناه تدهور جدي في الوضع الصحي لخالها ارمون! سألتها ايلاين بصوت خائف متردد:

ـ هل ساءت احوال الخال الى هذه الدرجة؟

ـ اتمنى لك العمر الطويل يا حبيبتي. توفي خالك بهدوء ودون عذاب، قبل بضع دقائق.

ثم وضعت يدها على رأس ايلاين، وأضافت بلهجة تكشف مدى السيطرة القوية التي تمارسها على اعصابها:

ـ لا تحزني كثيرا، فهو لم يكن يريد ذلك لك. كانت الوفاة بالنسبة اليه راحة كبرى، وقد اتيت انت في الوقت المناسب لادخال بعض السعادة الى قلبه. هل من الممكن ان تنزلي بعد قليل لتناول فطور الصباح؟ انه يوم الاجازة الاسبوعية لماري، ولا احب كذلك ارهاق جاك وزوجته بأمور كهذه. ساحتاج الى مساعدتك، ايتها الحبيبة، اذ علينا اعداد الترتيبات الخاصة بالجنازة.

ـ اوه، لا تقلقي يا خالتي، فسوف اساعدك.

ـ شكراً، يا حبيبتي. كنت اعرف ان بامكاني الاعتماد عليك عند الحاجة.

قفزت ايلاين من السرير، بمجرد خروج مارجريت من الغرفة، وتوجهت فوراً الى الحمام. وبعد بضع دقائق، ارتدت ثياباً عادية ووقفت امام النافذة تسرح شعرها استعداداً للنزول الى قاعة الطعام. تذكرت فجأة انها ذهبت وبيار صباح يوم احد كهذا من العام الماضي، لجمع نوع من الفطر الذهبي اللون الشهي الطعم، وانها وعدته قبل عودتها ظهراً . . . بالزواج منه.

وما هي الا لحظات وجيزة، حتى جذبت انتباهها حركة خفيفة في باحة القصر. شاهدت الكاهن وبيار يتوجهان نحو السيارة المتوقفة

قرب البركة الصغيرة. انتفض قلبها بين اضلعها، بمجرد رؤيتها بيار، وارتفعت يدها بحركة لاشعورية الى عنقها... لتتحسس المكان الذي اطبقت عليه اصابعه ليلة امس بقوة بالغة. سمعت صدى صوته يتردد في رأسها... انت خائفة، انت خائفة! ارتعش جسمها كورقة في مهب الريح، وهي تتذكر كافة الأمور التي حدثت...

فتح بيار الباب الأمامي للكاهن الوقور، ثم استدار حول السيارة وتطلع نحو باب البرج. حبست ايلاين انفاسها، متمنية لو انه يرفع نظره نحوها لتبتسم له وتحييه. ولكنه قال بضع كلمات لم تسمعها لشخص ما يقف داخل الباب، ثم جلس وراء المقود وانطلق بسيارته بعيداً عن القصر. احست بخيبة امل مريرة، تحولت خلال لحظات وجيزة الى سخط وغضب...

لم يجد بيار، مرة اخرى، اي صعوبة تذكر في حملها على التجاوب معه بمثل تلك الطريقة المذهلة. تعمّد في الليلة الماضية أن يشعرها بأنه يحبها ويريدها... ويجعلها تنسى شكها وارتيابها. لماذا، اوه لماذا افسحت له هذا المجال؟ لماذا سمحت بحدوث الشيء الوحيد، الذي ارادت تجنبه اكثر من غيره؟ لم تحل بعد أي من المشاكل العالقة...

صحيح انه شرح لها سبب وجود قفازيه وقداحته في شقة سولانج، ولكنها لا تزال تشك كثيراً في الهدف الكامن وراء ذلك الايضاح أو التبرير. من المؤكد انه يحاول الابقاء على زواجهما قائماً، لأن ذلك وحده يضمن له مشاركتها في وراثة شامبورتن.

تناولت فطورها، وذهبت الى قاعة المكتبة لمقابلة مارجريت ومعرفة الخطوات التي يتحتم عليها القيام بها. اعطتها السيدة، التي ترملت للمرة الثانية، قائمة بأسماء الأشخاص الذين يجب ابلاغهم بوفاة ارمون... وقالت:

ـ ستكون جنازة عادية وبسيطة، حسب رغبته. اطلبي من الذين

يريدون احضار اكاليل زهور، تحويل ثمنها الى جمعيات خيرية. يجب التأكد ايضاً من الاتصال بالسيد اميل لوجيه المستشار القانوني لارمون. بشأن الوصية... لأن كافة الأوراق والوثائق موجودة في مكتبه.

وقفت مارجريت استعداداً لمغادرة المكتبة، ثم تنهدت وقالت:

ـ اتمنى أن اموت في يوم، لا يكون حاراً الى هذه الدرجة!

امضت ايلاين ما يقرب من ثلاث ساعات للاتصال باثني عشر شخصاً فقط، وذلك لوجود معظمهم خارج بيوتهم. دقت مارجريت الباب، وقالت لها:

ـ تعالي لتتناول الغداء، ايتها العزيزة.

ـ اوه، نعم، شكراً. لم اكن اتصور ابداً مدى الصعوبة في اجراء عدد محدود من المكالمات الهاتفية. سبعة اشخاص موجودون اما على الشواطىء واما في حدائق عامة أو في نوادٍ للتسلية والترفيه. ولكن من يلومهم على ذلك، فهو يوم عطلة جميل رائع!

ـ اعتقد انك انت ايضاً تتمنين القيام بنزهة في الغابة القريبة. ربما ستجدين فترة كافية لذلك، في وقت ما من بعد ظهر اليوم.

لاحظت ايلاين لدى دخولها قاعة الطعام، ان المائدة معدة لشخصين فقط. تساءلت ضمناً، وللمرة العاشرة هذا الصباح، عن مكان وجود بيار. ماذا يفعل الآن، وقد أعاد الكاهن قبل ثلاث ساعات؟ الى اين ذهب، ومتى سيعود؟ سألت مارجريت بلهجة حاولت اظهارها طبيعية وعادية:

ـ ألن يتناول بيار معنا طعام الغداء؟

ـ لا، فقد ذهب الى بلفين. ألم يخبرك ذلك؟

اوه! بلفين هي ممتلكات عائلة دوروشيه الواقعة على بعد خمسين كيلومتراً الى الشرق من شامبورتن... والقريبة الى حد ما من انجولام. انها تلك المنطقة الصغيرة المزدهرة، التي ورث بيار حصة والده منها وعمل فيها بعض الوقت مع وريث النصف الآخر...

ابن عمه شارل. . . قبل توليه مهمة والده جان دوروشيه في ادارة ممتلكات شامبورتن. ردت ايلاين على سؤال السيدة المسنة، بصوت هادئ، يخفي وراءه انزعاجاً وتوتراً بالغين:

ـ لا، لم يخبرني. هل قال لك متى سيعود؟

ـ صباح بعد غد، ان شاءالله. هذا هو وقت العمل الجاد، كما تعلمين.

ثم ابتسمت، واضافت قائلة:

ـ لم يكن ليذهب في مثل هذه الظروف، لولا وجودك هنا اليوم لمساعدتي. اراحه كثيراً كونك معي، فاحس بانه قادر على الذهاب للاهتمام بعمله.

قطبت ايلاين حاجبيها، فيما كان جاك المتزن الرصين يأخذ صحن الحساء الفارغ ويضع مكانه صحناً عليه شريحة كبيرة من اللحم المشوي على الجمر، ومعها مجموعة مختارة من الخضار والمقبلات الشهية. ثمة لغز غامض يجب حله، ولكن. . . كيف ستفعل ذلك دون الكشف عن جهلها التام فيما يتعلق بأعمال بيار؟ حللت الموضوع بسرعة، ثم قررت في نهاية الأمر انتهاج اسلوب الصدق والصراحة. قالت بعفوية بريئة:

ـ لا افهم شيئاً بعد، يا خالتي. فما هو عمل بيار في بلفين، طالما ان ابن عمه شارل هو الذي يشرف على كل شيء هناك؟

ـ هكذا كانت الأمور في السابق، يا عزيزتي. فكما تعلمين، لم يكن شارل ابداً مهتماً بالحقول والبساتين. . . كما انه لم يدرس الزراعة أثناء وجوده في الكلية، مثلما فعل بيار. وفي الربيع الماضي، تمكن بيار من شراء حصة ابن عمه في بلفين. . . مستخدماً المبلغ الذي توفر لديه خلال عمله هنا في شامبورتن. انه الآن المالك الوحيد لبلفين، وكان يعيش فيها طوال الأشهر الستة الماضية.

تذكرت ايلاين فجأة قول بيار لها، ان ثمة اشياء كثيرة لا تعرفها. قالت لمارجريت بصوت ضعيف:

ـ اوه، لم اكن اعرف ذلك. لم يخبرني بيار شيئاً عن هذا الموضوع.

ـ ربما ظن انك لست مهتمة بهذا الأمر. عندما اقترحت عليه صباح اليوم أن يأخذك معه الى بلفين، قال لي ان مصالحتك معه كانت مجرد ادعاء لا يهدف الا الى ادخال بعض السرور الى قلب رجل يرقد على فراش الموت. . . وانها انتهت بوفاة ارمون. اشكرك من صميم قلبي، ايتها العزيزة، على مساندتي في كذبتي البيضاء البريئة. انا لست نادمة عليها، فقد ساعدته كثيراً على مغادرة هذه الدنيا بسلام وطمأنينة.

شعرت ايلاين بالألم الحاد ينخر عظامها ويجمد الدماء في عروقها، ولكنها بذلت جهوداً مضنية ومحاولات شبه يائسة بتقليد هدوء مارجريت وبرودة اعصابها. تظاهرت بأنها لا تزال تتمتع بذلك الطعام الشهي، على الرغم من المرارة المفاجئة في فمها. . . وقلبها. يا للغباء! كم كانت سخيفة وحمقاء، عندما نسيت اتفاقهما على تلك المصالحة الوهمية المزيفة! قالت لها بتهذيب مصطنع:

ـ كان هذا أقل ما يمكنني القيام به، تجاه خالي الحبيب.

ولكن بيار كان يتصرف امس، وكأنه لا يزال المسؤول الأول عن بساتين شامبورتن وكرومها ومعملها. . . أو هكذا تصورت. هزت رأسها، وقالت:

ـ الم يعد بيار يعمل في خدمة. . . أعني. . . في شامبورتن؟

ـ لا، يا عزيزتي. فقد ترك الشركة في نهاية الشتاء الماضي، عندما انتهت فترة العمل المتفق عليها. حل محله في هذه الوظيفة شاب اسمه جان بوتيون. الم تقابلي جان بعد؟

ـ لا، لم أقابله بعد.

ـ جان شاب لطيف وطيب جداً، وهو يعيش حالياً مع زوجته انيت وولديه في البيت الصغير ذاته الذي عشنا نحن فيه فترة طويلة. لا يزال بيار بالطبع يحب شامبورتن. . . وفي كل مرة يأتي لزيارتي وتمضية بضعة ايام معي، يقوم بجولات في كافة انحاء المنطقة كما كان

يفعل في السابق. اوه، تبدو عليك مظاهر الدهشة والحيرة.

- نعم. تحدثت قبل لحظات عن شركة، فماذا عنيت بذلك؟

- شركة سان فيران، طبعاً، التي تملك الأراضي في شامبورتن والمعمل القريب من انجولام.

- ولكن... ولكني كنت اتصور ان الخال ارمون يملك شامبورتن!

- كشريك فقط، ايتها الحبيبة. تأسست الشركة في ذلك الوقت الذي حدثتك عنه، عندما بدأ وضع الانتاج والنوعية في التدهور... عندما ادرك ارمون انه غير قادر على انقاذ شامبورتن بمفرده. اقيمت الشركة آنذاك، لادارة العمل من الفه حتى يائه... ابتداء بالزرع وانتهاء بتسويق المنتجات. ويتولى رئاسة الشركة الآن رجل يدعى ميشال موريه وهو احد الأشخاص الذين طلبت منك الاتصال بهم.

- اوه، لم اعرف ذلك. ستعتقدين بالتأكيد انني غبية جداً لجهلي كافة هذه الأمور.

- لا، يا عزيزتي، فانت صغيرة السن وحديثة العهد بعالم التجارة ومشاكلها وتعقيداتها. ويقع الخطأ الأساسي في هذا المجال على ارمون، رحمه الله، لأنه لم يطلعك على اي شيء من هذه الأمور الهامة. كان يفضل التحدث اليك عن الفن والموسيقى، واعادة صياغة قصص الحب والفروسية حسب مزاجه ووفقاً لما يشتهيه. لم يهتم كثيراً بالأرض وبالتجارة، وخصص كل وقته وماله للقصر الذي احبه فوق كل شيء. وعليه، فلن استغرب اطلاقاً اذا تبين لنا من وصيته انه مدين للشركة بمبالغ طائلة... وان ما من احد سيرث شيئاً يذكر. هل تمكنت من الاتصال بمحاميه، أميل لوجيه؟

- لا، لم اتمكن بعد. ولكن... اذا كان الوضع المادي على هذا النحو السيء، فماذا ستفعلين يا خالتي مارجريت؟

- لدي خطة كاملة لمجابهة هذا الاحتمال، يا عزيزتي. سأعود الى

لاروشيل، حيث ولدت وترعرعت. اشتقت كثيراً الى البحر، بسبب السنوات الطويلة التي عشتها بعيدة عنه. انا لا اتوقع شيئاً على الاطلاق من وصية ارمون، ولكن ذلك لا يقلقني. فقد ترك لي زوجي الأول جان دوروشيه ما يكفيني، وسأشتري شقة في لاروشيل تشرف على البحر... وعلى السفن الشراعية الصغيرة والكبيرة التي تدخل المرفأ القديم وتخرج منه. وسأكون ايضاً قرب ابنتي الكبرى، جانيت. آمل جدا في أن تتمكني، يا ايلاين، من زيارتي هناك بين الحين والآخر.

انها... تأمل فقط، ولا تتوقع كأي حماة زيارة كنّتها لها! كما انها لم تشمل بيار في تلك الزيارة! شكرتها ايلاين بتهذيب، ووعدتها بتحقيق ذلك. استأذنتها مارجريت بالذهاب الى النوم، نظراً للارهاق الشديد الذي تشعر به، ثم طلبت منها برقة ونعومة استئناف الاتصالات الهاتفية. وعدتها ايلاين خيراً، فهزت رأسها وقالت:

- حسناً، ولكني لا اريدك ان ترهقي نفسك كثيراً. انت متعبة وشاحبة الوجه.

٦- عاصفة في جرح عميق

لاحظت ايلاين بعد ثلاث مكالمات هاتفية، انها لا تعرف ما اذا كان هؤلاء الاشخاص سيحضرون الجنازة ام لا. فهي شاردة الذهن، وغير قادرة على التركيز والاصغاء بصورة طبيعية.

كان عقلها يضج بالمعلومات المذهلة التي زودتها بها مارجريت اثناء الغداء، فشعرت برغبة قوية في الاختلاء بنفسها في مكان هادىء... لتحلل بتمعن وروية معنى هذه الأمور ومدى تأثيرها على حياتها ومستقبلها. قفزت من كرسيها باندفاعها المعتاد، وخرجت الى الشرفة المطلة على الحديقة والغابة والنهر. هل تبقى هنا، ام تذهب الى مكان آخر؟ لماذا لا تذهب الى الغابة... فسكونها ممتع، وجمال طبيعتها أخاذ، وبرودة جوها رائعة!

جلست في الظل تصغي الى ضجيج الصمت، وتفكر بما قاله لها بيار. وثمة اشياء كثيرة لا تعرفينها، يا ايلاين! وعوضاً عن الاستفسار عن الأمور التي تجهلينها تسارعين الى تصور افتراضات مجنونة ثم تقنعين نفسك بانك اكتشفت الحقيقة. لم تهتمي بما فيه الكفاية، وهذا هو سبب احجامك عن توجيه الاسئلة...».

راحت كلماته القاسية وانتقاداته الجارحة تتردد في رأسها، كضربات المطارق ووخز الابر. صحيح انها لم تهتم بشكل كاف، ولكن ليس بالطريقة التي اوحى بها. لم تهتم بعمله، بماله، بطموحاته او حتى بموضوع الارث. لم تكن راغبة في معرفة اي شيء عن هذه

الأمور، ولم تكن تعيرها اي اهتمام على الاطلاق. وعندما سمعت أقوال سولانج وشاهدت الاثبات بأم العين، قررت الابتعاد عنه نهائياً بدلاً من مواجهته وتوجيه اسئلة لن تؤدي الا الى صب الزيت على النار.

ربما تصرفت كفتاة مراهقة، وليس كشابة ناضجة راشدة. ولكنها اقدمت على تلك الخطوة البالغة الاهمية، عندما شعرت بتعرض احترامها الذاتي للتحقير والاذلال. رفضت منحه فرصة لتبرير مواقفه، خوفاً على احلام الحب والسعادة التي نسجت خيوطها حول علاقتهما... وخشية تأكدها من انها ليست حقاً المرأة الوحيدة في حياته.

احست فجأة بالدماء الحارة تندفع بسرعة الى رأسها ووجنتيها. فقد تذكرت الليلة الفائتة وتفاصيلها، وقارنتها بما جرى في هذه الغابة بالذات قبل عام من الآن. علمت آنذاك، وللمرة الأولى في حياتها، معنى الاثارة الحقيقية... ولكنه اذهلها بابتعاده عنها فجأة، وبقوله لها:

- لا، لا اقدر.

- هل تعني انني... لا اعجبك... بما فيه الكفاية؟

ادار وجهه نحوها وتأملها طويلاً، قبل ان يضع مرفقه على الأرض قربها ويقول:

- لا، لا اعني ذلك ابداً. ولكني لا اقدر ما لم نتزوج.

لم تصدق اذنيها! فلقد تمنت دائماً من صميم قلبها ان يأتي يوم، يهتم بها رجل ما الى درجة كافية، بحيث يطالبها بالزواج قبل اي شيء آخر. ولكنها لم تكن لتحلم ابداً، بأن بيار سيكون هذا الرجل. فهو أول رجل احبته، وأول من فتح عينيها على روعة الحب.

حدقت به لحظات طويلة ثم غمرتها سعادة فائقة وبهجة عارمة.

سألته بلهفة وارتباك:

- حقاً، يا بيار؟

- حقاً، يا ايلاين. لماذا تشككين في كلامي؟
- لأني اعرف انه كان لديك عدد كبير من... الصديقات.
- هل تعرفين ذلك حقاً؟ ومن أخبرك؟
- شارلوت سوويل!
- هل تبحثين حياتي العاطفية مع خادمة القصر؟
- لا، ولكنها تحب التحدث عنك... لأنها مغرمة بك. انت رجل وسيم جداً، يا صديقي العزيز، ولست بحاجة لمن يخبرك ذلك. كما انك تتمتع بخصائص معينة تجذب النساء اليك، بصورة مذهلة.
- وكذلك الخادمات المراهقات، على ما يبدو.
ثم ابتسم، واضاف قائلاً:
- اخبريني، لماذا تجعلك معرفتك هذه الحقيقة، عن كثرة الصديقات في السابق، تشككين في رغبتي بالزواج منك؟
احمر وجهها خجلاً، وقالت بعد تردد:
- انا لست جميلة جداً... كما انه ليست لدي اي خبرة حقيقية... اعني، انني لم ارتبط... بأي رجل من قبل.
اخفت وجهها فجأة تحت ذراعه، واضافت قائلة بصوت هامس:
- لا. لا اعرف الكثير... عن الحب و...
ظل صامتاً بعض الوقت، وهو يلعب بخصلات شعرها الطويل وانحنى فوقها، قائلا برقة ونعومة:
- انت بالنسبة الي شابة جميلة للغاية، وانا معجب بشعرك الذهبي وعينيك السوداوين وبشرتك البيضاء الرائعة.
ثم هز كتفيه، ومضى الى القول:
- اما بصدد الأمور الاخرى، فانا سعيد حقاً لأنك لست خبيرة في العلاقات العاطفية. وربما يهمك ان تعرفي، يا صغيرتي، ان ما من امرأة عرفتها يمكنها منافستك في اي مضمار... وهذا هو سبب اقدامي على طلب يدك. ولكن... لماذا تبكين، يا حبيبتي؟ هل

آذيتك بشكل أو بآخر؟
- لا، اوه... لا ابداً. هذه دموع الفرح والسعادة.
أحست بارتعاش جميل، وهو يجفف الدموع التي انهمرت على خديها. وبعد دقائق طويلة، ساعدها على الوقوف وقال لها... فيما انطلقا عائدين الى القصر بأيد متشابكة:
- حسناً. اذا كنت انت سعيدة، فانا كذلك.
تذكرت ايلاين، وهي سابحة في بحر الاحلام والذكريات، مدى سرور ارمون لدى سماعه نبأ قرارهما بالزواج... والتحفظ الذي ابدته مارجريت. واصر خالها آنذاك على زواج تقليدي بدلاً من الزواج المدني، مع انه لم يكن يهمها ابداً كيف واين تتزوج... لم تكن مهتمة الا بوجودها مع بيار، وبمعرفتها انه لها. وادركت الآن ان حبها له كان تملكاً كاملاً... وانانياً... اعمى عينيها عما يجري حولها. ولم تلاحظ، الا في حديثها مع سولانج، ان بيار لم يقل لها ابداً انه يحبها!
لم يقل لها ذلك ايضاً في الليلة الماضية! فالزواج بالنسبة اليه مصلحة او ترتيبات معينة، تمنحه بعض الحقوق التي لا يتردد اطلاقاً في المطالبة بها ساعة تسنح له الفرصة... تماماً كما حدث في الليلة الفائتة.
ولكنها اعترفت لنفسها بأنها هي ايضاً ارادت وتاقت الى قربه، وبأن الامس أدخل الى قلبها السعادة المفرحة ذاتها التي شعرت بها عندما تزوجا. ومع ذلك، لا تزال الشكوك تراودها بانه يتعمد استغلال هذه العلاقة لابعاد الشبهات عنه وعن تصرفاته. مسكينة انت، يا ايلاين! كنت تشعرين بالوحدة الباردة، فافسحت له المجال... واقنعت نفسك بأن المصالحة حقيقية وليست مجرد ادعاء.
اوه، كم بدت مختلفة تماماً عندما تركت لندن صباح أول أمس! تصورت ان لديها قوة ارادة كافية، لمقاومة هيمنته وتسلطه عليها. ولكنها كانت تدرك ضمناً مدى خطورة اي لقاء معه، ولهذا السبب

وحده ظلت بعيدة عنه طوال تسعة اشهر. يا له من رجل شرير، لا تعرف التخلص منه! الم يقل لها في أول لقاء بينهما بعد ذلك الفراق الطويل، ان شرير تعرفه افضل من آخر تجهله؟ أليس هذا الكلام ايحاء واضحاً، بأن الابقاء على زواجهما افضل لها من الطلاق والزواج من رجل آخر؟

لا، لا تريد حقاً الزواج من شخص آخر! فحتى جيرالد، المرشح الأفضل لمنصب الزوج الثاني في حال حدوث الطلاق، لا يعني لها شيئاً بالمقارنة مع بيار. لم تتضايق ابداً عندما سمعت ان جيرالد اخذ لوسي معه في رحلة بحرية، مع ما قد تؤدي اليه مثل هذه الرحلات. ولكنها تشعر بغيرة مؤذية قاتلة، كما هو حالها الآن، اذا اقام بيار علاقة مع اي امرأة اخرى... وهذه هي مشكلتها الكبرى.

هل يمكنها البقاء زوجة له، وهي تعرف بصورة شبه مؤكدة ان امرأة مثل سولانج ستكون دائماً موجودة في مكان ما من حياته؟ هل يمكنها ذلك، وهي تعلم علم اليقين بانه ليس على استعداد ابداً للكشف لها عن كل شيء يتعلق به؟ لم يتزوجها بدافع الحب، ولكن نتيجة رشوة من خالها... الذي اراد تحقيق حلمه المجنون بولادة طفل يجمع بين دماء سان فيران وحبيبته مارجريت دورروشيه!

طفل! توقفت ايلاين فجأة في طريق عودتها الى القصر، ووضعت يدها على بطنها... وكأنها توقعت اكتشاف انتفاخ مفاجىء وفوري! تسارعت ضربات قلبها وجف اللعاب في فمها، فيما خيم عليها شعور غريب من الهلع والرعب.

لم يكن لديها وقت كاف للتفكير بالنتائج المحتملة والمضاعفات المرتقبة! تصرفا كحبيبين، دونما اي تفكير بالتطورات اللاحقة. هل سيتحقق اذن حلم اومون؟ هل ستفي بوعدها لخالها، رغماً عن ارادتها ورغبتها؟ هل ستلد في الربيع المقبل؟

توترت اعصابها كثيراً، بحيث لم تعد قادرة على تحمل الضغوطات النفسية والعاطفية... فاخذت تركض نحو القصر باقصى

سرعتها. صعدت الى الشرفة على مهل، وهي تحاول التقاط انفاسها وتجفيف العرق المتصبب من جبينها. سمعت رنين الهاتف في قاعة المكتبة فاندفعت نحو تلك الحجرة القريبة بسرعة فائقة. رفعت السماعة، وقالت لاهثة من شدة التعب:

ـ نعم!

ـ اسعدت صباحاً، يا سيدة دورروشيه. اميل لوجيه هنا. ارجو اولا تقبّل تعازيّ الحارة بوفاة السيد سان فيران.

شكرته ايلاين، فمضى الى القول:

ـ أتصور انك حاولت الاتصال بي في وقت سابق، أليس كذلك؟

ـ نعم. اقترحت علي حماتي، السيدة سان فيران، ان اتصل بك لأنك المسؤول قانونياً عن وصية خالي.

ـ صحيح، يا سيدتي. امامي الآن نسخة من الوصية... ومع انني لست معتاداً اطلاقاً على قراءة محتويات وصية الا وجهاً لوجه، ولكني اعتقد انك تودين معرفة ما اذا كانت تنص على اي تدابير معينة بالنسبة للجنازة.

ارتبكت ايلاين، وقالت له متلعثمة:

ـ اوه... آه نعم... ارجوك.

ـ يفترض بي التوجه الى شامبورتن للقيام بهذه المهمة. ولكن، بما ان اليوم عطلة اسبوعية وعندنا ضيوف سيمضون معنا نهاية الاسبوع بكاملها، فسوف استميحك عذراً لتأجيل حضوري حتى صباح غد. آمل في مقابلتكم جميعاً... انت والسيدة سان فيران وزوجك وكافة العاملين في القصر، لأن الوصية تنص على ذلك. وقد طلب السيد سان فيران ان يوارى جثمانه في مدفن العائلة، في مقبرة سان اوغسطين. كما طلب عدم احضار اكاليل زهور، وتحويل ثمنها عوضاً عن ذلك الى جمعيات خيرية. هذا كل ما في الأمر، بالنسبة للجنازة. ما هو افضل وقت لكم، غداً صباحاً، كي احضر مع الاوراق والوثائق؟

- الحادية عشرة؟
- عظيم! على اي حال، لن يستغرق اللقاء طويلاً لأن شركة شامبورتن تملك الآن كل شيء تقريباً. . . عفواً؟ هل قلت شيئاً، يا سيدتي؟
- سألتك عما اذا كانت الشركة تملك القصر ايضاً؟
- نعم، مع ان هذا الامر ليس معروفاً الا على نطاق ضيق جداً. لم يكن السيد سان فيران يحب الكشف عن مدى تدهور اوضاعه المادية، وعن انه لم يعد قادراً حتى على الاحتفاظ بملكية القصر. سمحت له الشركة بالاقامة في القصر للاهتمام به والمحافظة عليه، لانه بالطبع مثال رائع على الهندسة المعمارية القديمة ذات الطابع التاريخي والحضاري. ولكن ارتباك خال والدك ومرضه في الآونة الاخيرة، جعلاه يظن انه لا يزال مالك القصر. اصر علي كثيراً في الاشهر الماضية كي اضيف بنداً الى وصيته، ينص على تحويل القصر الى اولادكما. . . انت والسيد دوروشيه.
- هل تعني ان هذا البند لم يضف الى الوصية؟
- تماماً، يا سيدتي. لم يكن هذا البند ضرورياً اطلاقاً، لانه فقد ملكية القصر منذ فترة من الزمن. لم يترك خالك شيئاً، يا سيدتي، باستثناء بعض الاسهم القليلة في الشركة وقطع معينة من الاثاث واشياء اخرى مماثلة. سوف تطلعين على كافة التفاصيل غداً، باذن الله. الى اللقاء، يا سيدة دوروشيه.
- الى اللقاء.

وضعت ايلاين سماعة الهاتف في مكانها، ثم اخفت وجهها بين يديها وتذكرت كلام مارجريت عن الوضع المالي المتدهور لارمون. احست فجأة برغبة قوية في التحدث مع بيار، ففتحت الكتيب الصغير الذي يضم اسماء الاقرباء والاصدقاء وارقام الهاتف في منازلهم او مكاتبهم. . . ولكنها لم تجد رقماً لبلفين. بحثت في دليل الهاتف المحلي عن اسم عائلة دوروشيه، فلم تجد بلفين بين العناوين

المسجلة فيه. من ستسأل؟ الأفضل لها الا تزعج مارجريت. . . اوه، ستحصل على المعلومات المطلوبة من جاك.

كان مستلقياً على مقعد خشبي قديم في باحة القصر، يغط في نوم عميق. نادته باسمه. فرفع الصحيفة التي كان يغطي بها وجهه وعينيه وهب واقفاً. . . ثم قال:
- نعم، يا سيدتي.
- هل يمكنك اعطائي رقم الهاتف في بلفين؟
- آسف، يا سيدتي، اذ لا يوجد اي هاتف هناك. . . مع ان السيد بيار يحاول منذ بعض الوقت تأمين خط خاص به.
- اوه، يا لها من مشكلة مزعجة! انا مضطرة جداً للاتصال به، لأن المحامي لوجيه يتوقع رؤيته هنا في الحادية عشرة من صباح غد.
- هل لي ان اقترح عليك، اذن، التوجه الى بلفين بسيارة السيد سان فيران؟ مفاتيحها موجودة في المطبخ.
- ولكني. . . لا اعرف الطريق الى بلفين.
- اتبعي الطريق المؤدية الى القرية، ثم انحرفي يساراً قبل وصولك الى الجسر، وانطلقي على الطريق الترابية المحاذية للنهر. ستكون رحلة شاقة الى حد ما، ولكنها افضل بكثير من التوجه الى الطريق الرئيسية ثم التحول جنوباً مرة اخرى. تصلين بعد بضعة كيلومترات الى طريق ضيقة تبعدك عن النهر، وتؤدي بك الى بلفين عبر قرية بليك.
- وكيف سأتمكن من معرفة بلفين؟
- ستجدين بيتاً جميلاً ابيض الجدران، وسط مجموعة من اشجار السرو تبعد قليلاً عن الطريق. واعتقد ان اسم دوروشيه مسجل على علبة البريد، الموضوعة في بداية الممر المؤدي الى البيت. هل احضر لك المفاتيح، يا سيدتي؟
- نعم، شكراً.

استقلت ايلاين سيارة البيجو الزرقاء ذاتها، التي استخدمتها

العام الماضي في التوجه الى بواتيه، واحست مرة اخرى كأنها تفرّ هاربة. ولكن ثمة فرقاً شاسعاً بين المرتين والشعورين... فهي تهرب الآن الى زوجها، وليس منه! سوف تتعرف الى بيته... والى طريقة حياته، عندما يكون بعيداً عنها وعن امه. وقد تتمكن ايضاً من التحدث معه بأسلوب مختلف تماماً، بعد اكتشافها انه ليس طامعاً بقصر او ممتلكات. من يدري، فلربما ستسمع اجابات كافية ووافية عن بعض الاسئلة التي تقض مضجعها وترهق اعصابها!

اذا كان يعلم بانه لن يرث معها سوى حصة ضئيلة تافهة في شركة سان فيران، فلماذا تزوجها؟ كيف قالت لها سولانج اذن انه تزوجها سعياً وراء تحسين اوضاعه المادية، طالما انه مطلع على سوء الاحوال المالية لخالها ارمون؟ وهل يطمع ببعض المفروشات القليلة، هو الذي تمكّن من شراء نصف ممتلكاته واراضيه الحالية بعرق جبينه ومن ماله الخاص؟

ولكن، لماذا ستصدق سولانج بعد الآن؟ الم تثبت لها الوقائع والمعلومات، التي اطلعت عليها منذ وصولها اول امس، عدم صحة تلك المزاعم بكاملها؟ اخطأت سولانج في حديثها عن مارجريت... وعن ملكية شامبورتن... وربما ايضاً عن سبب زواج بيار منها.

لاحظت ايلاين فجأة انها اصبحت على مقربة من الجسر، فاوقفت السيارة بسرعة وتطلعت حولها بحثاً عن الطريق الترابية. اوه، لقد تجاوزتها ببضعة امتار! عادت تلك المسافة القصيرة الى الوراء، ثم تحولت الى تلك الطريق الضيقة التي لا تكاد تتسع لاكثر من سيارة واحدة. وصلت بعد دقائق معدودة الى تقاطع الطرق الذي اخبرها عنه جاك، فانطلقت على تلك الطريق المستقيمة بين حقول القمح وكروم العنب. وبمجرد تجاوزها قرية بليك الصغيرة، خففت ايلاين من سرعة السيارة واخذت عيناها تبحثان بشوق عن علبة بريد تحمل اسم دورويشيه.

اوه! ما هذه الاصوات الغريبة التي تسمعها، ولماذا تهتز بها السيارة على هذا النحو المزعج وكأنها تحتضر، توقفت... قفزت مترين الى الامام. وتوقفت مرة اخرى، فيما اصبح صوت المحرك اشبه بالحشرجة. تطلعت بسرعة الى مؤشر الوقود، فتبين لها فوراً مدى الجفاف الذي يعاني منه المحرك. استخدمت القطرات القليلة الباقية في الانابيب، التي تنقل الوقود من الخزان الى المحرك، ووضعت السيارة الى جانب الطريق.

ضحكت بصوت عال، وهي تضع المفاتيح في جيبها وتهم بالخروج من السيارة. لماذا التسرع، يا ايلاين؟ ولماذا لم تتأكدي قبل انطلاقك من شامبورتن، من ان كمية الوقود كافية لمثل هذه الرحلة الطويلة؟ ألا يقال ان في العجلة الندامة، وفي التأني السلامة؟ لا شك في ان اقرب محطة للوقود لن تكون الا في بليك، التي تبعد عنها الآن اكثر من كيلومترين. ولكن بلفين ستكون اقرب اليها من بليك، وعليه، فالتوجه اليها سيراً أفضل من العودة الى تلك القرية الصغيرة واضاعة المزيد من الوقت.

لم تشعر ايلاين بالتبدل المفاجىء في الطقس، الا بعدما خرجت من السيارة واقفلت بابها. تحولت سحب الصيف الرمادية الخفيفة، التي شاهدتها قبل بعض الوقت، الى غيوم كثيفة سوداء تحجب نور الشمس عن معظم تلك المنطقة. آه من هذا الحر الشديد، ومن هذه الرطوبة المرهقة! لا بأس، ستمشي ببطء كيلا ترهق نفسها كثيراً... وستحاول الاحتماء قدر الامكان بظلال الاشجار القريبة. وفجأة... لمع البرق وهدر الرعد، فبدا وكأن عاصفة هوجاء ستهب بين لحظة واخرى.

اسرعت الخطى باتجاه بلفين، على أمل الوصول اليها قبل هبوب العاصفة. وما ان وصلت الى بداية الممر وشاهدت علبة البريد الخشبية الخضراء التي تحمل اسم دورويشيه، حتى ارعدت السماء مرة اخرى... وانهمر المطر. ركضت باتجاه البيت الابيض، الذي بدا

امامها كقلعة صغيرة على بعد بضع مئات من الامتار. كانت الطريق اليه صعوداً، فاضطرت ايلاين للتوقف عن الركض مرات عديدة بهدف التقاط انفاسها. وفي اثناء ذلك، تواصل البرق والرعد وهطول الامطار الغزيرة. . . وكأنما السماء تصب جام غضبها عليها وحدها.

ولما اقتربت من البيت وشاهدت سيارة السيتروين، شعرت ببعض الارتياح. سيكون بيار الآن اما في الداخل، او في مكان ما من ارضه يتفقد كرومه وبساتينه. وعندما رأت الباحة الخارجية للبيت التي حولتها المياه الغزيرة الى بركة كبيرة، تذكرت انها تبدو الآن وكأنها خارجة من بحيرة غطست فيها بكامل ثيابها. دقت على الباب الخشبي وانتظرت بضع لحظات، ثم دقت مرة أخرى. . . ولكن دون جدوى. فتحت الباب ودخلت، وهي تنادي بصوت عال الى حد ما:

ـ بيار! بيار!

لم يجبها أحد، ولكنها سمعت صوت ماء يتدفق في مكان ما من الجهة اليمنى. اقتربت من مصدر الصوت بخطى بطيئة حذرة، فوصلت الى باب مفتوح يؤدي الى غرفة كبيرة لا بد وانها المطبخ. سقفه من خشب السنديان، وجدرانه الحجرية مطلية بلون بني خفيف للغاية. وفي احدى زواياه فرن كبير مبني من القرميد الاحمر الداكن. . . فيما يحتل مقعدان خشبيان جانبي الزاوية المقابلة.

وشاهدت ايلاين على الطاولة الخشبية المستطيلة بقايا وجبة طعام لشخص واحد. . . بما في ذلك نصف رغيف خبز، وقطعتان من الجبنة الصفراء، وصحن لا تزال عليه آثار اللحم المقلي، واشلاء كوب مبعثرة هنا وهناك. رفعت نظرها الذي تسمر بعض الوقت على قطع الزجاج المتناثرة، وتطلعت نحو النافذة حيث صوت الماء المتدفق بقوة. اوه! رأت بيار، الذي لم يشعر بدخولها، واقفاً قرب مغسلة المطبخ وواضعاً يده تحت المياه المندفعة من الحنفية. . . كان يشتم

بصوت منخفض. ركضت نحوه، وهي تسأله بلهفة:

ـ بيار! ماذا فعلت بنفسك؟

قفز في مكانه كمن اصيب بعيار ناري، وادار وجهه نحوها محدقاً بذهول واستغراب. . . فيما ابقى يده الجريحة تحت الماء. سألها بحدة:

ـ كيف وصلت الى هنا؟

ثم وضع يده الاخرى على جبينه، واضاف بلهجة ساخرة:

ـ رباه! لا تقولي لي اني بدأت ارى اشياء غير موجودة! هل انت هنا حقاً، ام ان الجرح اعمى بصيرتي وشل تفكيري وقدرتي على استيعاب الأمور؟

ـ لا، انت لست واهماً على الاطلاق. فانا هنا، وقد اتيت بسيارة البيجو حتى منتصف الطريق تقريباً بين بليك وبلفين. . . ثم سرت بقية المسافة.

ـ وهل هذا هو الوقت المناسب للرياضة؟

ـ لم اكن افكر قط بالرياضة، ولكني اضطررت لمتابعة الطريق سيراً. . . بسبب نفاد الوقود من السيارة.

قهقه بيار ضاحكاً، وقال باستهزاء واضح:

ـ هذه انت. . . هذه انت، يا عزيزتي. لا تفكرين اطلاقاً.

ـ ما بك، يا بيار؟ هل تهذي؟

اشار الى الجرح العميق في راحة يده، وقال:

ـ ربما. . . الى حد ما، ولكن هذا الجرح اللعين ايقظني من ذهولي وهذياني.

تأملت ذلك الجرح برعب وألم شديدين، وبدا لها ان دماء حبيبها ستنضب. صرخت به مذعورة:

ـ اوه، يجب تضميد الجرح فوراً. اين صندوق الاسعافات الاولية؟ اين هو؟ اخبرني، وانا احضره. يجب وقف الدماء التي تسيل بقوة! رباه! ان لم تعمل على تضميد الجرح حالاً، فسوف

تموت!

علق على لهفتها وارتباكها، بسخرية لاذعة مريرة:

- ستتضايقين كثيراً اذا حدث ذلك، ايتها العزيزة!

- اوه، طبعاً. من المؤكد انني سأتضايق كثيراً. بيار، الا تعرف اين يمكنني ايجاد صندوق الاسعافات الاولية؟ يجب وقف هذا النزيف الحاد فوراً، وقبل ان انقلك الى المستشفى.

تمتم بصوت ضعيف، قائلاً:

- لا يهم... لا يهم، كما انه ليست عندي اي اشياء من هذا القبيل.

- ولكنها اشياء ضرورية لا بد منها، وانا متأكدة من ان لديك بعضها في مكان ما. اوه، ماذا سأفعل يا ربي؟

تطلعت حولها بهلع واضح، بحثاً عن اي شيء يساعدها على لف يده. شاهدت منشفة قطنية على الجدار القريب، فاخذتها بسرعة ومزقت منها رباطاً... ثم قالت له:

- ضع يدك مرة اخرى تحت الحنفية.

واضافت بعد لحظات وجيزة:

- اهدأ الآن قليلاً كي ألف الرباط حولها باحكام.

لم تكن العملية سهلة كما تصورت، ولكنها انهتها بنجاح وقالت:

- يا للغباء! لماذا لا توجد اية اسعافات أولية، وبخاصة في بيت بعيد ومنعزل كهذا؟ ماذا كان سيحدث لك، لو لم اصل في الوقت المناسب؟

وجه اليها سؤالاً لا علاقة له البتة بكلامها، وكأنه لم يسمع اقوالها... او سمعها وقرر تجاهلها. قال لها بهدوء، فيما كان يتأملها بعينين ناعستين:

- ما بالك مبللة هكذا؟

- هبت العاصفة وانا في طريقي الى هنا، من المكان الذي تركت فيه السيارة. ألم تسمع الرعد؟

- بلى.

اغمض عينيه فجأة وتمايل في مكانه حتى كاد يهوي على الارض. ولكنه امسك بحافة الطاولة، وقال:

- رباه، اني اشعر بضعف شديد!

- لا استغرب ذلك ابداً. فقد ارهقت نفسك اليوم بالعمل... ثم اكلت بنهم... وفقدت كمية كبيرة من الدم. اجلس الآن لبعض الوقت، حتى اعدّ القهوة واحاول ايجاد رباط افضل من قطعة المنشفة القديمة هذه. هيا، دعني اساعدك. هل تؤلمك يدك كثيراً؟

جلس على احد المقعدين الخشبيين وهو يتمتم قائلاً:

- انها... تنتفض، واشعر كأنها موضوعة في نار حارقة.

ثم نظر اليها، ومضى الى القول:

- اخلعي هذه الثياب المبللة جداً، قبل تعرّضك..

قاطعته بشيء من الحدة:

- وماذا تقترح علي ان ارتدي عوضاً عنها؟ لا شيء، أم انك تحتفظ هنا بكمية لا بأس بها من الثياب النسائية؟ هل يوجد عندك مثلاً بعض الثياب، التي تركتها هنا احدى... صديقاتك؟

ابتسم، ورد عليها مداعباً:

- هذا ما يسمى بمهاجمة الانسان بعد وقوعه ارضاً، وهو أمر لا تقرّه الشهامة والفروسية. لا، يا عزيزتي، ليست لدي أي ملابس نسائية. ولكن... يمكنك ارتداء احد قمصاني، فسوف يغطي معظم انحاء جسمك. ستجدين قميصاً في غرفة النوم التي تقع فوق هذا المطبخ. هيا، اذهبي الآن وافعلي كما اقول لك.

وضعت ابريق الماء على النار واحضرت كيس القهوة، ثم بدأت تنظف الطاولة وتجمع قطع الزجاج المتناثرة.

- هيا، يا ايلاين.

- حسناً، سأذهب بعد دقيقتين. اخبرني كيف كسرت الكوب.

افترّ ثغره عن ابتسامة خبيثة ماكرة، وقال:

- كنت امتحن قوتي.

ثم هز يده السليمة، وقال محذراً مهدداً:

- هل ستفعلين كما قلت لك، ام انني ساضطر للقيام بهذه المهمة... بنفسي؟

ردت عليه بلهجة تجمع بين الجدية والمزاح، قبل خروجها من المطبخ على عجل:

- اوه، يا لك من رجل متسلط!

صعدت السلالم الضيقة والحادة الارتفاع، فوصلت الى ممر يؤدي الى غرفتين. دخلت الى غرفة النوم الفسيحة التي تقع فوق المطبخ مباشرة، فاعجبت بها كثيراً. ثمة نافذة واحدة نائتة من السقف المائل، تمشياً مع شكل سطح البيت، فيما الجدران الحجرية مطلية بلون اصفر شاحب. الاثاث بسيط للغاية... فهناك سرير مزدوج كبير، وصندوقان خشبيان للثياب والأمتعة، وسجادتان قديمتان تغطيان معظم الارضية الخشبية وتتناسقان من حيث الالوان مع الستائر.

قالت ايلاين لنفسها، وهي تغيّر ثيابها المبللة، انها قادرة على تحويل هذا المنزل الجميل الى بيت جذاب رائع يكون اكثر دفئاً وحناناً من قصر شامبورتن... الذي يشبه المتاحف المليئة بالتحف القديمة والنادرة. فتحتْ درجاً وهمّت بأخذ احد قمصان بيار الزرقاء، فانتبهت الى شرود افكارها نحو اتجاهات بعيدة كل البعد عن الحقيقة والواقع. ما بها؟ هل جنت؟ كيف تسمح لمشاعرها واحاسيسها بالاندفاع الى هذه الدرجة، وهي لن تعيش هنا في بلفين؟ لم يطلب منها أحد في الاساس ان تقيم هنا، كما انها لم تكن تعلم من قبل ان بيار يسكن في هذا المنزل!

اعترضت افكارها على محاولاتها المتكررة للحد منها والسيطرة عليها، وسبحت في بحر من الخيال والاحلام. اوه، كم يسعدها ان تقيم في هذا البيت... وتنام في هذا السرير الكبير، وتستيقظ على

زقزقة العصافير... وتنتشق عطر الطبيعة والحرية! وقفت امام النافذة، وبدأت تخطط للحديقة التي تريدها والازهار التي تحبها. الياسمين هنا، القرنفل هناك، والورود... آه ما اروع الورود واطيب شذاها!

هزت رأسها بعصبية لتستفيق من ذهولها واحلامها، واوعزت الى قلبها بالابتعاد عن العواطف والخيال... ومواجهة الواقع المر! هل يريدها بيار هنا؟ لا، والا لكان دعاها الى مرافقته. لا يريدها... يرفضها، وهذه هي حقيقة ثابتة لا تقبل الشك. لماذا لم يخبرها عن بلفين، او عن انتهاء عمله في شامبورتن؟

وضعت ثيابها المبللة على كرسي لتجف، ثم اخذت اثنين من مناديله البيضاء النظيفة لتستخدمها كضمادة... ونزلت الى المطبخ. كان الماء يغلي في الابريق، فأعدت القهوة... ووقفت امام بيار النائم، تتأمل وجهه الشاحب بعض الشيء. جاشت عواطفها تجاهه، واحست برغبة قوية لتطويقه بذراعيها... وتسريح شعره باصابعها.

ولكنه مقطب الحاجبين عاقد الجبين، وكأنه يتألم حتى في نومه. جلست قربه ووضعت يدها على يده السليمة، فخافت وقلقت. لماذا هذه البرودة وهذا الاصفرار، وأين هي حرارته المعتادة وحيويته الدائمة؟ هل اصابه الجرح العميق والنزيف القويّ... بصدمة؟

همست في اذنه بصوت مرتبك:

- بيار! بيار! هل انت بخير؟

لم يفتح عينيه او يتحرك من مكانه، عندما سألها متمتماً:

- ما... ماذا؟

- هل تؤلمك يدك كثيراً؟ أليس من الافضل ان آخذك الى المستشفى لتضميد الجرح بطريقة مناسبة؟

- لا، لا حاجة لذلك.

لمعت عيناه ببريق ساخر مرح، عندما فتحهما لفترة وجيزة، ثم

ابتسم وقال:

ـ وكيف يمكنك الذهاب الى مستشفى انجولام، وانت ترتدين قميصي؟

انه على حق . . . كعادته. فذهابها يوم احد على هذا الشكل الى مستشفى في بلدة صغيرة، سيجذب الانتباه ويثير موجة عارمة من الثرثرة والانتقاد. قالت له بلهفة:

ـ ولكنني قلقة عليك. فالجرح كبير وعميق، وجسمك بارد جداً.

ـ ليس كبيراً كما تعتقدين. فحصته اثناء وجودك فوق، فتأكد لي توقف النزيف. . . واعتقد انه سيلتئم بطريقة ملائمة وخلال فترة قصيرة.

ثم استوى في جلسته، واضاف بلهجة اكثر مرحاً وحزماً:

ـ ستساعدني القهوة بالتأكيد. اكثري السكّر في فنجاني، فانا احبها حلوة المذاق. ستجدين الفناجين والملاعق في ذلك الجانب من خزانة المطبخ.

حدقت به بضع لحظات، فيما كانت تخيم على نفسها غمامة من شعور غريب بفقدان الأمل والرجاء. اين يوم امس وليلة البارحة؟ ماذا حل بهما؟ هل كانا حقيقة ام خيالاً؟ أحست وكأنها لم تستلم منه تلك الوردة الحمراء مع فطور الصباح، ولم تركب امامه على دراجته الهوائية، ولم. . . قال لها بصوت هادىء:

ـ القهوة، يا ايلاين، ان لم يكن لديك اي مانع.

آلمتها كثيراً لهجته الساخرة، التي بدت كخنجر حاد يطعنها به دونما اي داع او سبب. اسرعت نحو ابريق القهوة، وهي تتذكر انها لم تقدم ابداً طوال الاشهر القليلة التي عاشتها في شامبورتن على اعداد قهوته او طعامه. . . وهو ما ينتظره الرجل عادة من زوجته، حتى مع وجود الخدم في البيت. الا توحي كلماته الآن، بأنها كانت تأنف من القيام بمثل هذه الاعمال الزوجية العادية؟

وضعت يدها على فمها، لتمنع نفسها من الرد عليه بلهجة مماثلة،

ولكن عينيها اغرورقتا بالدمع، لانهما يبتعدان عن بعضهما على ما يبدو. . . عوضاً عن ردم الهوة واعادة الوفاق. صبت القهوة في الفنجانين الكبيرين وهي تلاحظ انحسار العاصفة وتوقف المطر عن الهطول. قدمت له فنجانه، ثم وضعت الصينية على الطاولة وجلست على الشق الثاني من المقعد، لتشرب قهوتها وتتذكر سبب حضورها الى بلفين. قال لها بيار بعد قليل:

ـ لا بأس اطلاقاً. لم اكن اتوقع من شابة عاشت معظم حياتها في بريطانيا، اعداد مثل هذه القهوة الفرنسية الجيدة. اريد مزيداً من القهوة، اذا سمحت.

تطلعت نحوه بانفعال لتقول له ان يحضر قهوته بنفسه، لأنها ليست خادمته. ولكنه كان ينظر عابساً الى يده الجريحة، ويهز رأسه. خف غضبها فجأة، وحلت محله فوراً رغبة قوية في مساعدته والسهر على راحته. اخذت الفنجان الفارغ، وتوجهت صامتة الى الجهة المقابلة من المطبخ. وما ان صبت القهوة واعادت الفنجان اليه، حتى تذكرت الهدف من وراء حضورها الى بلفين. قالت له:

ـ أتيت اليوم لأسألك عن شيء ما، يا بيار.

ـ ألم يكن بالامكان الانتظار حتى الثلاثاء؟ سأحضر الجنازة، كما تعلمين. وكنت انوي بالطبع مقابلتك مرة اخرى، قبل عودتك الى لندن. ولكن. . . هل قررت عدم الانتظار الى ما بعد الجنازة؟ هل قررت العودة غداً كما كنت تنوين سابقاً لأن خالك لم يعد بيننا. . . ولم تعد هناك بالتالي اي حاجة للادعاء والتظاهر؟

لم تعد هناك اي. . . ! ارتجفت يدها، فاضطرت لوضع فنجانها على الصينية. لماذا تنسى باستمرار ان ما حدث بينهما، لم يكن الا مجرد تظاهر بالمصالحة؟ مصالحة وهمية زائفة. . . لم تعش سوى ساعات معدودة، عوضاً عن الايام او الاسابيع التي اوحى بها اول امس، مصالحة مزعومة. . . وافقت عليها بتردد، نظراً لاقتناعها من صميم قلبها بانها ستنهار في خطة مجنونة كهذه. . . وفي وقت تحلم بتحول

الادعاء الى حقيقة ثابتة. قالت له بصوت ضعيف حزين:

ـ لا، لن اعود الى لندن غداً كما كنت انوي سابقاً. ساحضر الجنازة، ولكننا لن نجد اثناءها الوقت الكافي للتحدث.

علق على كلامها بحدة وتأفف واضحين:

ـ فهمت الآن ماذا تعنين. انت تريدين الآن جواباً على مطالبتك بالطلاق.

شرب جرعة من قهوته، ثم مضى الى القول:

ـ فكرت طويلاً بهذا الموضوع، وقررت اخيراً افساح المجال لك للبدء في معاملات الطلاق.

نزلت جملته كالصاعقة على رأسها، وشعرت بان الصدمة المذهلة قد تفقدها وعيها بين لحظة واخرى. احست بنظراته الحادة والجافة تلسع وجهها الشاحب، وتذيب رباطة الجأش التي حاولت التحلي بها. كان الطلاق اللعين آخر موضوع يمكنها التفكير به، عندما تحمست للحضور الى بلفين. سألته بصوت متهدج:

ـ وما هي الأسس التي يمكنني الاعتماد عليها، للمطالبة بهذا الأمر؟

نظر اليها بعصبية، ثم هز كتفيه واجابها بلهجة باردة جافة:

ـ الأسس التي تناسبك. اتصور انك لن تجدي اي صعوبة تذكر في هذا المجال، اذا استعنت بمحام قدير. لماذا الدهشة والاستغراب؟ هل بدأت تعتقدين انني لن اوافق ابداً على الطلاق، ام انك غيرت رأيك مرة اخرى؟

احنت رأسها قليلاً، لانها لم تعد قادرة على تحمل سهام السخرية المنطلقة من عينيه وشفتيه. اخذت نفساً عميقاً، ثم تمتمت قائلة:

ـ انها حقاً كلمات مثيرة للدهشة. فبعد ليلة امس...

خنق الأمل والذهول المروّعان بقية الجملة في حلقها، فكادت تقفز من مكانها وتفر هاربة من هذا الوضع المرهق للنفس وللأعصاب. لا، لن تفر مرة اخرى... فقد شبعت فراراً وهرباً،

وشبعت تهرباً من مواجهة المصاعب في حينها! ستبقى لتعرف كل شيء، بما في ذلك النهاية المرة والحزينة التي بدأت تتوقعها. سألها ببرودة:

ـ ماذا حدث ليلة امس؟

عصر الألم قلبها، لأنه يسألها عما حدث! قالت له بصوت مرتجف:

ـ انت تعرف جيداً ماذا حدث، يا بيار.

ـ حقاً؟ لم الاحظ او ادرك ان للحب علاقة بما جرى. تصورت ان ما حدث بيننا ليلة امس، جاء تلبية لرغبات معينة كان كل منا بحاجة اليها. تصادف وجودنا معاً في غرفة واحدة، فتمت الأمور اللاحقة بصورة طبيعية. وكل ما في الامر، ان زواجنا الذي لا يزال قائماً حسب الاوراق والمستندات... اضفى الصبغة القانونية على ما قمنا به.

استشاطت ايلاين غضباً وسخطاً، من جراء الاهانة الحقيرة التي اوحت بها كلماته القاسية اللاذعة. انه ينتقم الآن مما قالته له امس. تباً له! احست برغبة للانقضاض عليه... لصفعه... لغرز اظافرها في وجهه، ولكنها تذكرت ما حل بها في مناسبات مماثلة سابقة. تمكنت بعد قليل من القول له:

ـ ولكن كيف يمكنك التحدث اليوم عن الطلاق؟

ـ لأن هذا هو ما تريدينه، ايتها الحبيبة. هل نسيت كلامك لي يوم الجمعة؟ الم تذكري انك لست بصدد المصالحة معي... وبانك تريدين الطلاق... وبأن ما من شيء، بما في ذلك احتمال حرمانك من ارث خالك، سيثنيك عن رأيك؟ الآن، توفي خالك ولم يعد هناك اي مجال لجرح مشاعره او تغيير وصيته. وبناء على ذلك، فانا افعل الآن ما يوافقك ويناسبك... ويرضيك. ها قد وافقت اخيراً على رغبتك في الطلاق، فلماذا الاستغراب؟

لم تشعر هذه المرة بسخريته المعتادة، فقد تحدث بصدق وهدوء

مذهلين. تأمله ايلاين وهو يسند رأسه ثانية الى حافة المقعد الخشبي، ويغمض عينيه عابساً متوجعاً. قالت لها مارجريت ان شيئاً يقض مضجعه ويحزنه، وها هي ملامح وجهه تثبت ذلك بشكل قاطع. بدا حزيناً حتى اليأس وكأنه يعكس شعورها عندما سمعت كلام سولانج... وفرت عائدة الى لندن. احست بأن حزنه المحتمل يحزنها، والألم الذي ربما يشعر به يؤلمها ويحز في نفسها. سألته بارتباك واضح:

- ولكن... هل الطلاق هو... هو ما تريده... انت؟

فتح عينيه ببطء شديد، ثم قال لها برقة ونعومة:

- اريده، اذا كان سيسعدك. فكل ما اريده، واردته دائماً، هو اسعادك.

بصيص أمل... وشعاع رجاء! عاد الاحمرار تدريجياً الى وجنتيها، وهي تسأله:

- هل هذا يعني...

قاطعها صوت نسائي ناعم، ينادي من الممر الداخلي:

- مرحباً، يا بيار! بيار؟ أين انت؟ ارجو ان تكون هنا، والا لستذهب رحلتي اثناء العاصفة هباء. اوه، يا لها من عاصفة هوجاء!

تجمد الدم في عروق ايلاين وأحست برعشة قوية، عندما عرفت صاحبة الصوت. استدارت بسرعة نحو الباب، وحدقت بذهول بالغ. كانت سولانج بورجيه واقفة في الباب بكامل اناقتها، ووراءها رجل طويل القامة اشقر اللون... وذو لحية حمراء.

٧ - امس، واليوم، وأبداً...

مرت لحظات صمت عصبية، والشخصان الجالسان يحدقان بالاثنين الواقفين في الباب بطريقة تدل على الاستياء من هذه الزيارة المفاجئة. ثم وقف بيار وقال للزائرة بصوت عميق ناعم، بعد مسارعته الى اخفاء يده الجريحة في جيب سرواله:

- اهلاً وسهلاً، يا سولانج. لم اتوقع حضورك بمثل هذه السرعة.

تقدمت نحوه بذراعين مفتوحتين وابتسامة مشرقة، ثم وضعت يديها على كتفيه وخدها على خده... حسب الطريقة الفرنسية، وقالت:

- اوه، يا صديقي العزيز، كم انا مسرورة برؤيتك.

ثم استدارت نحو الرجل الذي دخل وراءها، وقالت له:

- تعال، يا بيورن، لأعرّفك على صديقي العزيز جداً... بيار دوروشيه.

حوّلت نظراتها بسرعة نحو ايلاين، التي ظلت جالسة على المقعد وكأنها اصبحت قطعة من الجليد، واضافت بلهجة ساخرة خبيثة:

- وأيضاً على من كنت اظنها... حتى الآن... زوجته ذات الطباع الغريبة، ايلاين.

انحنى العملاق الاشقر رأسه احتراماً، وقال:

- انا بيورن بيورلينج، ويسعدني التعرف عليكما.

رد عليه بيار بتهذيب عائل:

- على الرحب والسعة. تفضل، اجلس. ايلاين، هل من الممكن اعداد المزيد من القهوة؟
- نعم، نعم. طبعاً.
حملت الصينية بشيء من الحدة، بعدما لاحظت ان سولانج تتأملها باستهزاء . . . وحقد. وضعت الماء على النار وأصغت بانتباه بالغ، كي تسمع كل كلمة يقولها الآخرون. استهل بيار الحديث بالقول:
- متى عدت من باريس، يا سولانج؟
- في وقت متأخر من ليلة امس. انا آسفة جداً، ايها الصديق العزيز، لعدم تمكني من مقابلتك تلك المرة. وآمل في الا يكون غيابي عن الشقة، قد تسبب لك بأي ازعاج. قالت لي السيدة أولات انك كنت متضايقاً قليلاً من شيء ما، فقررت الحضور اليك في أسرع وقت ممكن.
احست ايلاين بالغيرة تطعنها في الصميم، وتخلف جرحاً عميقاً في قلبها وعواطفها وكرامتها. لماذا توحي كل كلمة تقولها سولانج، بوجود علاقة حميمة تربطها مع بيار؟ لماذا . . . ؟ سمعت زوجها يعلق بكلام هادىء على تلك الجملة، ثم يحاول ابعاد الحديث عن المواضيع الشخصية:
- لا، لم اشعر بأي انزعاج على الاطلاق. هل انت في اجازة هنا، يا سيد بيورلينج؟
- لا يمكن وصف اقامتي هنا على هذا الوجه بالتحديد. فأنا فنان ايضاً، وانتقل بين هذا البلد وذاك.
تدخلت سولانج على الفور، عندما أحست بتردد رفيقها الناجم عن عدم طلاقته بالفرنسية، وقالت:
- التقينا في العام الماضي، في استوكهولم. اتصل بي هذه السنة ليقول انه آت الى باريس، ويحب مشاهدة بعض المدن الأخرى واجزاء معينة من الريف الفرنسي. ذهبت الى العاصمة لاستقباله،

ودعوته الى الاقامة هنا بعض الوقت. ويأمل بيورن في التوجه الى اسبانيا، في فترة لاحقة.
لاحظت ايلاين، أو هكذا تصورت، ان سولانج تحاول استرضاء بيار . . . وكأنها تريد اقناعه بعدم وجود اي علاقة تربطها بهذا الرجل السويدي، تماماً كما تفعل اي امرأة مع حبيبها الغيور عندما يكتشفها مع رجل آخر. تطلعت بسرعة نحو بيار للتأكد من ردة فعله، فبدا لها غاضباً الى حد ما. حولت نظرها بالسرعة ذاتها الى بيورن، فلاحظت انه يشعر بشيء من الاحراج والارتباك. لم يعلق بيار على المعلومات المتعلقة باللقاء والدعوة واحتمالات السفر، فعادت سولانج الى المواضيع الشخصية والخاصة. سألته بغنج ودلال:
- لماذا اتيت لزيارتي امس؟
- لاستعيد بعض الأشياء الخاصة بي، والتي اعتقد انني نسيتها في شقتك.
تظاهرت سولانج بالدهشة، وهي تسأله بهدوء:
- اشياء تخصك؟ وهل توجد عندي اشياء كهذه؟
- طبعاً! هل نسيت؟ عندما زرتك في احد ايام الشتاء لشراء احدى لوحاتك الفنية الجميلة، تركت قفازين وقداحة وعلبة سكائر على طاولة صغيرة في القاعة. وقد شاهدتها ايلاين في وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه.
وضعت ايلاين الفناجين الأربعة على الصينية وتطلعت نحو سولانج، التي نظرت اليها بتحد واضح وسألتها:
- حقاً، يا ايلاين؟ لماذا ، اذن، لم تأخذي تلك الأشياء لدى مغادرتك شقتي؟
سؤال في محله . . . ولكن كيف ستتمكن من الاجابة عليه، بحضور رجل غريب؟ لاحظت نظرات الاستهزاء في عيني بيار، فقالت وهي تدير وجهها نحو ابريق الماء:
- لم افكر حينئذ بهذا الأمر.

التفتت سولانج مرة اخرى نحو بيار، وسألته بصوت دافىء مغرٍ:

- هل كان ذلك حقاً السبب الوحيد لزيارتك؟

- لا! كنت اتطلع الى ايضاح مسألة صغيرة تزعجني منذ بعض الوقت. كنت آمل في سماع شرحك للأسباب التي حملتك على ابلاغ ايلاين بأنني زرتك اكثر من مرة في شقتك بانجولام .

تظاهرت سولانج مرة ثانية بالدهشة والاستغراب، وسألته ببرودة:

- هل قالت لك ذلك حقاً؟

استدارت ايلاين نحوها، فواجهتها سولانج بنظرات التحدي والانفعال قائلة:

- من المؤكد انك اسأت فهمي، يا ايلاين.

تطلعت نحو بيار، ومنه الى ايلاين، ثم وضعت يدها على خدها ومضت الى القول هامسة:

- اوه، رباه! ألهذا السبب... لا، لم تتصوري آنذاك بالتأكيد ان بيار وانا...

توقفت عن انهاء جملتها، وغطت وجهها بيديها... وهي تهز رأسها بكثير من العصبية. تحول ارتباك بيورن وذهوله الى قلق واضح، فاقترب منها وهمس بضع كلمات في اذنها. لم تتحرك من مكانها ولم ترفع يديها عن وجهها، ولكنها هزت كتفيها وكأنها تقول له... دعني وشأني. ظلت ايلاين واقفة دون حراك، وهي تشعر بالألم والسخط. لقد نجحت سولانج على ما يبدو في اظهارها اندفاعية متهورة، وبأنها تسرعت في اصدار احكام مبرمة بناء على ما تخيلته حقيقة ثابتة. تطلعت نحو بيار مستنجدة به، فبدت ملامح وجهه بعيدة كل البعد عن الشفقة والرحمة... أو حتى عن الاستعداد للغفران. قالت له بصوت ضعيف حزين:

- لم... لم اكن مخطئة. هكذا قالت لي.

رفعت سولانج وجهها وأبعدت خصلات الشعر التي تغطي قسماً

منه، ثم نظرت الى بيار وهزت كتفيها قائلة:

- لماذا اكذب في موضوع كهذا؟

اجابها بلهجة جافة:

- هذا ما كنت اتساءل عنه.

لم تعد ايلاين قادرة على تحمل المزيد من تصرفات سولانج الخبيثة والماكرة، فصرخت بها فجأة:

- ولكنك كذبت، يا سولانج بورجيه! كذبت في كل شيء، وعن كل موضوع تحدثت عنه. قلت لي اشياء كثيرة، اكتشفت فيما بعد عدم صحتها. كذبت عن والدة بيار، عندما قلت انها تزوجت أباه كذريعة للتقرب من خالي. كذبت عندما أوحيت لي بأنني سأرث شامبورتن، وبأن هذا هو السبب الوحيد لاقدام بيار على الزواج مني. انا اعرف الآن ان مارجريت تزوجت من جان دوروشيه، قبل فترة طويلة من ذهابه للعمل في شامبورتن. واعرف ايضاً انني لن ارث شيئاً يذكر من خالي، لأن شركة سان فيران تملك كل شيء في شامبورتن... بما في ذلك القصر. كذلك، فأنا اعرف الآن ان بيار لم يقم بزيارتك في شقتك الا مرة واحدة... بهدف شراء لوحة فنية. كذابة، منافقة! كذبت علي، وأنا كنت غبية جداً بحيث انني صدقتك في كل كلمة قلتها لي!

قالت لها سولانج بنعومة، تكاد تصل الى درجة الرقة والحنان:

- ايلاين، عزيزتي، لا شك في انك غاليت كثيراً في ردود فعلك وتصرفاتك الغاضبة. هذا كله من نسج خيالك، فأنا لم اقل شيئاً عن والدة بيار أو عن شامبورتن. وحتى لو انني ذكرتها في معرض حديثنا العام، فأنا متأكدة من انك لم تفهمي كلامي على حقيقته... لأنك لا تستخدمين لغتك. هذا ما يشعر به بيورن احياناً، عندما نتحدث معاً بالفرنسية. أليس ممكناً اذن، ان تكون المشكلة نابعة عن صعوبة في الترجمة أو سوء التفسير؟ كلمة من هنا وأخرى من هناك، ويتغير المعنى بصورة جوهرية. ألا توافقني على ذلك، يا بيار؟

- نعم، انه احتمال وارد.

شعرت ايلاين بالألم الحاد يعصر قلبها، ويحطم سعادتها وآمالها. انه يصدق كلام سولانج ويقبل تفسيرها وتبريرها! انطلقت من فمها صرخة احتجاج مكبوتة، وفرت هاربة من الغرفة... تماماً كما حدث معها في العام الماضي وفي شقة هذه المرأة اللعينة بالذات.

توقفت لحظة في الممر، عندما لاحظت انها حافية القدمين ولا ترتدي سوى قميص بيار. لن تتمكن من مغادرة بيته على نحو غير لائق كهذا، مما يعني اضطرارها لارتداء ملابسها المبللة. ركضت بسرعة نحو الغرفة العليا، ثم دخلتها وأغلقت الباب وراءها بعصبية بالغة. اسندت ظهرها الى الباب لتحد من ارتجاف جسمها، فتذكرت كيفية خروجها من شقة سولانج قبل تسعة اشهر وجلوسها في السيارة... لتفكر بما ستفعل. ها هي الآن، كما في المرة السابقة، تفر من وضع معين... لعدم قدرتها على مواجهته ومعالجته، ولتألمها البالغ من وجود علاقة ما بين بيار وسولانج.

خلعت قميص بيار وارتدت ثيابها المبللة، فأحست برجفة البرد وقشعريرته. ستذهب الى بليك، لاحضار بعض الوقود لسيارة البيجو و...! اوه، لقد نسيت، او بالأحرى أنستها الظروف والتطورات المتلاحقة، ابلاغ بيار ان عليه الذهاب غداً الى شامبورتن لسماع وصية خالها. ولكنها علمت على الأقل انه يوافق على منحها الطلاق، لأنه يريد اسعادها... وليس لأنه هو راغب في ذلك. اوه! لماذا اتت سولانج في تلك اللحظة، التي بدأت تستعيد فيها بعض الأمل؟ ولكنها اتت، ولم يعد هناك بالتالي أي داع لوجودها هي...

انهمرت الدموع من عينيها، وهي تهم بمغادرة الغرفة. كلما اسرعت في الابتعاد عن هذا البيت الذي احبته وتمنت البقاء فيه، كلما كان ذلك افضل لها... وكذلك الأمر بالنسبة لمغادرتها فرنسا. لن تعرض نفسها بعد الآن للآلام، وقلبها للتحطم. ولكنها، مع الأسف الشديد، لن تعرف من الآن فصاعداً معنى السعادة واللذة والهناء!

تسللت من المنزل بحذر تام، وبدأت تجري بأقصى سرعتها على الطريق الطويلة الضيقة... والموحلة. كانت السماء زرقاء صافية، والعصافير سعيدة فرحة، والاعشاب خضراء نظيفة. ولكن الغيوم السوداء لم تترك قلب ايلاين الحزين! وما ان اقتربت من نهاية الطريق، حتى شاهدت سيارة تقترب بسرعة والرذاذ يتطاير بعنف من تحت عجلاتها. تقدمت من حافة الطريق، وهي تلوّح بيدها... مشيرة الى السائق بالتوقف.

- طاب نهارك، يا سيدتي. هل يمكنني مساعدتك بشيء؟

كان السائق مزارعاً في منتصف العمر ويبدو طيباً ومهذباً، فارتاحت ايلاين اليه وشرحت له مشكلتها بايجاز ثم طلبت منه نقلها الى اقرب محطة وقود. قال لها وهو يفتح الباب:

- سأقترح عليك حلاً أفضل من هذا. توجد معي صفيحة اضافية من الوقود، ستوصلك بالتأكيد الى بليك... حيث يمكنك ملء خزان سيارتك.

جلست قربه، وقالت له بامتنان ظاهر:

- شكراً لك، ايها السيد.

وصلا الى سيارة البيجو، فأفرغ المزارع صفيحة الوقود في خزانها وهم بالذهاب. عرضت عليه ثمن الوقود، فلم يقبله الا بعد اصرار شديد. يا له من رجل طيب! كررت شكرها له، فأحنى رأسه تهذيباً واحتراماً ثم حياها مودعاً ومتمنياً لها التوفيق. توجهت الى بليك، حيث ملأت خزان الوقود وتابعت طريقها الى شامبورتن.

ولدى اقترابها من الجسر الذي تعبره السيارات الى قرية شامبورتن، توقفت بضع لحظات لتفكر بما ستفعله. هل تتجه يساراً الى القصر لتسمع محتويات الوصية وتحضر جنازة خالها، ام تتحول الى اليمين وتتابع سيرها الى باريس؟ قد تجد طائرة الى لندن هذه الليلة، أو تضطر للانتظار في المطار كي تستقل في الصباح أول طائرة متجهة الى العاصمة البريطانية. من سيتضايق في شامبورتن من

ذهابها الآن؟ لم يعد هناك خال عجوز، يحزنه ذهابها ويحطم قلبه واحلامه هربها للمرة الثانية . . . والأخيرة. مارجريت؟ قد تشعر بأن قرارها دليل على عدم الاحترام لذكرى خالها، ولكنها لن تصاب بأي دهشة أو استغراب. ستعتبر هذا التصرف مثلاً جديداً على تهور كنتها، واثباتاً آخر بأنها ليست زوجة صالحة لابنها.

اما بيار، فلن يشعر قطعاً بأي انزعاج او انقباض. ألم يوافق، قبل اقل من ساعتين، على الطلاق؟ صحيح انه تحجج بسعادتها وراحة بالها، ولكنها تظن الآن انه فعل ذلك لتبرير هذا التبدل السريع والمفاجيء في رأيه.

فلماذا لا تذهب الآن اذن، طالما ان الفرصة متاحة لها، لماذا لا تترك وراءها الى الأبد، احلام السعادة والهناء؟ انها مجرد احلام . . . أضغاث احلام! وهل تدوم الأحلام الى ما لا نهاية؟

قادت السيارة بضعة امتار الى الأمام لتعبر الجسر، ثم حولتها الى اليمين. شاهدت مارسيل امام مرآبه، وهو يملأ خزان احدى السيارات بالوقود. وعندما لاحظ سيارة خالها، لوح لها بيده محيياً. . . فلم ترد التحية بالمثل، بل اطلقت العنان للبيجو لتبتعد عن شامبورتن. . . الى الأبد. وصلت بعد دقائق معدودة الى المكان ذاته، الذي انزلقت فيه سيارة الرينو الصغيرة، فخففت السرعة قليلاً وبطريقة لاشعورية. وبعدما تجاوزت ذلك المنعطف، تطلعت في المرآة الصغيرة لتلقي نظرة اخيرة و. . .

شهقت بذهول واستغراب شديدين، عندما لاحظت سيارة الستروين الرمادية اللون تجدّ في اثرها. . . وتحاول تجاوزها. . . حتى على الرغم من المنعطف الخطر الذي تقترب منه. ضغطت بقوة على دواسة الوقود، فوثبت البيجو كاحدى سيارات السباق وانطلقت بسرعة جنونية. . . بعد تمايلها قليلاً على الطريق المبللة. أمسكت ايلاين جيداً بالمقود، لتضمن عدم انزلاق سيارتها أثناء عبورها ذلك المنعطف القاسي.

برزت فجأة سيارة اخرى من الناحية الثانية، فقفز قلبها من مكانه وشعرت بجفاف حاد في فمها. نظرت بسرعة الى المرآة، فأحست بارتياح بالغ. تفادى السائق الاصطدام بالسيارة الآتية باتجاهه، ولكن بمسافة قصيرة للغاية. لم تكن الستروين حينئذ الا على بعد امتار معدودة عنها، فلاحظت ان سائقها المجنون ليس سوى . . . بيار. . . وانه وحده.

استغلت فرصة ظهور سيارة ثالثة من الجهة المقابلة، وعدم تمكن بيار بالتالي من تجاوزها، فزادت الضغط على دواسة الوقود بحيث اوصلت سرعة السيارة الى اقصاها. استقامت الطريق ثانية، ولم تعد هناك على ما يبدو أي سيارات آتية باتجاههما. حوّل بيار سيارته الى يسار الطريق، ثم اقترب منها. . . دون أن يتجاوزها. بدت السيارتان وكأنهما حصانان يتسابقان ولا يتمكن أي منهما من تجاوز الآخر.

توترت اعصاب ايلاين بطريقة مذهلة ولم تعد قادرة على تركيز كافة انتباهها على الطريق المبللة الممتدة امامها، وذلك لاهتمامها بتجنب أي احتكاك أو تصادم بين السيارتين. وفجأة، ظهرت سيارة آتية نحوهما. سيضطر بيار الآن اما الى تجاوزها، وهو قادر على ذلك بكل سهولة، واما الى تخفيف سرعته قليلاً والتحول الى يمين الطريق. ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل، وحافظ على سرعته ذاتها.

دب الرعب والهلع في قلبها، عندما أدركت ان اصطداماً مروعاً وهائلاً سيقع بين سيارة بيار والسيارة الأخرى. . . مما سيؤدي الى مصرعه. لم تفكر بمن قد يكون في السيارة الثانية وبما قد يحصل لهم، لأن همها الوحيد كان. . . بيار! حولت سيارتها الى اقصى اليمين، وضغطت على المكبح. انزلقت البيجو واستدارت حول نفسها، بحيث تزحلقت العجلتان الخلفيتان نحو القناة المنخفضة وأصبحت مقدمة السيارة باتجاه شامبورتن.

فتحت عينيها بعد لحظات من الغضب العارم، المشبع بالصدمة

والخوف، فلم تشاهد الا السماء التي تلبدت ثانية بالغيوم السوداء. اطفأت المحرك وحاولت الخروج من السيارة، التي كانت تشكل مع حافة الطريق زاوية من خمس واربعين درجة. لم تتمكن من فتح الباب بالسهولة التي تصورتها، ففتحه لها بيار وهو يسألها ببرودة تضج سخرية واستنكاراً:

- تحاولين الهرب مرة اخرى؟

تطلعت نحوه، فلم تجد برودة مماثلة في عينيه ونظراته. كان يحدق بها بسخط بالغ، لا يوازيه سوى غضبها وحنقها. خرجت من السيارة، صارخة:

- ماذا كنت تفعل؟ تحاول تجاوزي في منعطف محفوف بالمخاطر، ثم تصر على ابقاء سيارتك منطلقة في وسط الطريق... حتى على الرغم من اقتراب سيارة اخرى من الناحية المعاكسة؟

- كنت احاول ادخال الخوف والرعب الى قلبك، ويبدو انني نجحت تماماً في ذلك. الى اين كنت تظنين نفسك ذاهبة؟

هزت راسها بعنف لترجع شعرها الى الوراء، وقالت بحدّة:

- الى باريس، ومنها الى لندن، ولن تتمكن من منعي.

اشار الى سيارة البيجو، وقال لها بلهجة جافة:

- ولكنني منعتك... ولن ادعك تتابعين رحلتك. ستعودين معي الى شامبورتن.

- لا، يا بيار، فما نفع ذلك؟ لقد قلنا كل شيء، وأنت وافقت على الطلاق... وهذا هو كل ما كنت اريد معرفته.

تنهد وقال:

- لم اكن افكر بالوضع القائم بيننا، بل باتباع الأمور المتعارف عليها حسب الأصول. لا يمكنك مواصلة الهرب، يا ايلاين، لمجرد سماعك كلاماً لا يروق لك. ألم يحن الوقت بعد، لتنضجي وتصبحي راشدة؟

- انا ناضجة وراشدة!

- تصرفي اذن حسب ذلك، وهيا معي الى شامبورتن. انت مدينة لخالك، على الأقل، بسماع وصيته وحضور جنازته.

توقف لحظة، ثم تابع حديثه الهادىء قائلاً:

- لا يمكنك ابداً تصور مدى الانزعاج والضيق الذي احس به الجميع، عندما هربت في العام الماضي... ومدى القلق الذي شعر به كل منا، عندما ادركنا انك لن تعودي في مساء ذلك اليوم الماطر. خافت امي كثيراً من احتمال تعرضك لحادث سيارة... وأنا كذلك. ذهبت ابحث عنك على طول الطريق من هنا حتى انجولام.

- حقاً؟ ولكنك لم تكن في القصر! كان يفترض بك ان...

- قلت لك قبلاً انني تركت المدينة في وقت مبكر، لأشتري هدية عيد ميلادك. وصلت الى القصر، ومعي الهدية، وجلست انتظر. وعندما لم يظهر لك اي اثر، اصبت كالجميع بقلق عظيم.

ثم هز رأسه، وأضاف بالهدوء ذاته:

- وها انت الآن تحاولين الاقدام على ارتكاب الخطأ نفسه، وتعذيبنا بطريقة مماثلة. لماذا؟ الأنك لم تفكري؟ الأنك تصورت اشياء غريبة عجيبة، كما حدث عندما شاهدت القداحة والقفازين في شقة سولانج؟ لم تفكري بأحد آخر سوى نفسك، وبمدى الألم الذي احسست به. لم تفكري بي اطلاقاً.

كان المطر ينهمر بقوة في تلك اللحظة، وكذلك... دموعها. قالت له بصوت منخفض مرتجف، وهي تمسح عينيها ووجهها:

- آسفة. لم اقصد ازعاج احد أو اقلاق اي كان، ولكن... ولكني شعرت بألم حاد ينخر عظامي عندما شاهدت تلك الأشياء في شقتها وسمعت ما قالته عن علاقتك بها... وعندما وافقتها اليوم على كلامها...

أمسك بذراعيها وهزها قليلاً، وهو يقاطعها بتحد:

- ماذا تقولين؟ هل تصورت انني وقفت الى جانبها؟

- نعم. فعندما اتهمتني بذكاء خبيث ماكر بأنني اسأت تفسير

كلامها نظراً للتعقيدات اللغوية، صدقتها! قلت لها ان سوء التفسير والفهم، محتمل في مثل هذه الحالات. لم تصدق كلامي، ولكنك قبلت تفسيرها هي لما حصل.

- وعليه... قررت الهرب مرة اخرى! لم تزعجي نفسك بالانتظار دقيقة اخرى، لكي تسمعي بقية الأشياء التي قلتها لها. آه، ايتها الحبيبة، كم من مرة ستحصل هذه الأمور قبل أن تتعلمي؟ هل تريدين معرفة ما قلته لها؟

- نعم، نعم.

- هيا اذن الى السيارة الأخرى، قبل أن نغرق. سنتصل بمارسيل من القصر، ونطلب منه احضار البيجو. اتصور انه سيجد الموضوع ممتعاً للغاية.

وضع ذراعه حول كتفيها، وسارا معاً نحو السيارة الرمادية. لم تحتج أو تمانع، عندما أدار المحرك وانطلق باتجاه شامبورتن. ها هو اللعين يتولى زمام الأمور مرة اخرى، ولكن شعورها الآن يختلف نوعاً ما عن السابق. عاد الأمل يرفرف في قلبها، ويدغدغ مشاعرها وعواطفها. انه رجل لعين، ولكنها تحبه كثيراً... وتعرف مدى رغبتها في تملّكه الكامل والتام لها!

- قلت لسولانج انني اشك كثيراً في امكانية حدوث سوء تفاهم، بسبب اللغة، لأنها كانت تتحدث مع شخص يعرف اللغة جيداً. عرفت انها تكذب مجدداً، تماماً كما فعلت معك في العام الماضي، واصبحت ادرك الآن سبب كذبها. عرفت السبب فور وصولها الى بلفين، بتلك الصورة المفاجئة.

- اوه! لماذا كذبت اذن؟

اجابها بصراحة مطلقة:

- لانني رفضتها ونبذتها.

- رفضتها ونبذتها؟ ولكني كنت اتصور انك ابتعت احدى لوحاتها.

- صحيح، ولكن الرفض كان لها وليس للوحتها. فعندما ذهبت الى شقتها في تلك المرة الوحيدة لرؤية اللوحة، تظاهرت فجأة بأنها تعاني من شدة الهجر والبؤس... وبأنها مشتاقة الي كثيراً، ونادمة جداً على عودتها بعد زواجي من امرأة اخرى.

ثم مضى الى القول، بلهجة اكثر قساوة وسخرية:

- اقترحت عليّ اقامة علاقة والبدء من حيث انتهينا، فرفضت رفضاً باتاً.

تذكرت ايلاين كلام مارجريت عن سولانج، فقالت:

- لم يعجبها ذلك بالطبع، فقررت الانتقام.

- تماماً وقد تمكنت من تحقيق مآربها والانتقام لعزة نفسها، خلال وقت قياسي لم تكن لتحلم به.

وصلا في تلك اللحظة الى المنعطف الذي تعرضت في نهايته لتلك الحادثة البسيطة، فتنهد بيار ومضى الى القول بلهجة تحمل الألم والمرارة:

- زرتها انت في وقت لاحق من اليوم ذاته، فامطرتك وابلاً من الأكاذيب عني وعن امي وخالك والارث. لو توقفت آنذاك لحظة جدية للتفكير الناضج، وأتيت لاطلاعي على ما حدث، لكان بامكاني ايضاح كافة هذه الامور خلال دقائق. كنت سأخبرك جميع المعلومات التي اطلعت عليها بنفسك، خلال هذين اليومين. ولكنك لم تفعلي ذلك، ولا اعرف حتى الآن سبب هذا التصرف. لماذا لم تثقي بي، يا ايلاين، لماذا؟

- تألمت... تألمت كثيراً، بحيث فقدت السيطرة على اعصابي ولم اعد اعرف ماذا افعل. كنا سعيدين جداً، انت وأنا... هكذا كان شعوري أنا على الأقل، وتصورت انك مثلي. اوصلني وجودي معك وقربي منك كل يوم الى السماء السابعة، الى قمة السعادة التي لم احلم قط بالوصول اليها. ثم قالت لي سولانج انك تزورها... واوحت بانك لا تزال تحبها... فثارت اعصابي ولم اعد احتمل سماع المزيد.

انا... تزوجتك، لأنني... لأنني احببتك حباً جارفاً. وعندما اكتشفت فجأة انك لا تحبني، كدت اصاب بانهيار عصبي... وقررت الهرب.

زاد بيار من سرعة السيارة بشكل جنوني، ثم أوقفها بعد عبورهما الجسر في منطقة هادئة قرب النهر... واطفأ محركها. وما هي الا لحظات معدودة، حتى ضرب المقود بيديه، وصرخ قائلاً:

ـ الكذابة المنافقة الوضيعة! صممت عمداً على تحطيم زواجنا، بسبب حسدها لك. ولكن... ولكنك قلت قبل قليل انك قبلت الزواج مني، لأنك احببتني. اي حب هو هذا الذي يتضعضع وينهار كلياً بمجرد مواجهته امتحاناً... حتى كهذا؟

ثم نظر اليها بحدة، وأضاف بلهجة ساخرة تحمل الكثير من المرارة في طياتها:

ـ يا له من حب بسيط سطحي!

ردت عليه ايلاين بعصبية مماثلة:

ـ لم اتزوجك على الأقل الا بسبب الحب، سطحياً كان ام عميقاً. اما انت فقد تزوجتني بناء على رغبة خالي، وهذا امر لم تكذب فيه سولانج.

ـ رغبة خالك؟! اوه، لقد ذكرت لي ذلك من قبل. قلت لي ايضاً انه استخدم الرشوة معي، لكي اقبل بالزواج منك. من اين اتتك هذه الفكرة المستهجنة؟

ـ اتراجع... اتراجع الآن عما قلته بالنسبة للرشوة، لأنني تأكدت اليوم من انه لم يكن لديه اي شيء ليستخدمه كرشوة. ولكنني اعرف انه هو الذي خطط لزواجنا، لأنه ابلغني ذلك بنفسه صباح امس.

ـ التخطيط الوحيد الذي اعده خالك، حسبما اعرف، هو دعوتك في الصيف الماضي لتمضية عطلتك الصيفية في شامبورتن. التقينا نتيجة لذلك، ولكن التطورات التي تلت اللقاء كانت طبيعية

وحتمية. شعر كل منا بانجذاب نحو الآخر، فخدعنا نفسينا لنقتنع بأننا نحب بعضنا...

توقف عن اتمام جملته وأبعد وجهه عنها، فاحتجت على كلامه بعنف قائلة:

ـ انت الذي حاولت الخداع، وليس انا. اقنعتني ظهر ذلك اليوم الحار في الغابة، بأنك تحبني. وبعدما اصبحت اعرف الآن انك لم تفعل ذلك بدافع مادي أو سعياً وراء مكاسب مالية، لم يعد هناك الا سؤال لا يزال يحيرني ويزعجني. لماذا تزوجتني...

اختنقت بقية سؤالها في حلقها وجحظت عيناها، عندما شاهدته يدير وجهه القاسي نحوها فجأة ويهز كتفيها بعنف بالغ... صارخاً بعنف مذهل كأنه بركان ثائر:

ـ لا تفهمين... لا تفهمين. وهذه هي مشكلتك الكبرى والأساسية منذ البداية. تزوجتك لأنني احببتك، ولأنني لم اقبل بأن تكون علاقتنا هامشية وعابرة... والتسلل كاللصوص الى غابة هنا أو مرج هناك. اردتها علاقة عميقة، وطيدة، ودائمة...

ترك كتفيها فجأة ووضع مرفقيه على مقود السيارة، ثم غطى وجهه بيديه وتمتم قائلاً:

ـ رباه! انك ترغمينني، من حيث تدرين أو لا تدرين على التصرف معك بطريقة مجنونة وبعيدة كل البعد عن طبيعتي ووجداني... على استخدام الوحشية والعنف اللذين لا اقرّهما اطلاقاً.

ضحك بألم، وانهى كلامه المطول بالقول:

ـ وصلت بي مرحلة اليأس الى درجة الموافقة على منحك الطلاق، لأنني احبك كثيراً ولا يمكنني تحمل رؤيتك حزينة ومتألمة بسبب زواجك مني... رغماً عنك.

هدأ روع ايلاين بصورة تدريجية بطيئة، وبعدما بلغ ذعرها ذروته اثناء الهجوم العنيف الذي تعرضت له قبل لحظات. بدأت معاني

كلماته الأخيرة تخترق عقلها وقلبها بهدوء وحذر، وظهرت امام عينيها تلك الأشعة الخافته من الأمل التي لاحظت مثلها قبل ساعات قليلة في مطبخ بيته. احبها... ولا يزال يحبها، وقال لها ذلك بنفسه... وبصراحة تامة. ولكن لا تزال هناك بعض الأسئلة التي تحتاج الى اجابة صريحة، قبل الاعتراف امامه مجدداً بحبها الجارف له. سألته بتردد:

- لو انك احببتني حقاً، فلماذا لم تلحق بي الى لندن وتطلب مني العودة الى البيت؟ لماذا انتظرت اشهراً ثلاثة، ثم كتبت تلك الملاحظة الوجيزة الكريهة؟ اوه، بيار، لو انك تدري كم تعذبت وتألمت بانتظار حضورك الى لندن... وسماع مطالبتك لي بالعودة وسماع كلمة واحدة اخرى تعيد الحياة الى قلبي... احبك!

لم يعلق على كلامها بشيء، ولم يتحرك من مكانه. ظل صامتاً بضع لحظات، ثم تحوّلت الثواني الى دقائق، فقررت ايلاين القيام بمحاولة اخرى. قالت له:

- اتصور ان أي خطوة من جانبك لشرح ما حدث، ستكون بمثابة كشف لروحك وشخصيتك. انك لن تفعل ذلك امام اي امرأة... حتى زوجتك. وينطبق الأمر ذاته ايضاً، على رفضك الاعتراف بحزنك وتعاستك.

ثم تنهدت ، وتابعت حديثها قائلة بهدوء:

- لا بأس، فلن يهمني ذلك كثيراً. ولكنني سأظل اتساءل دائماً ولا افهم. وسأطرح اسئلة على نفسي باستمرار، دون أن احظى بأي جواب سوى من صنع خيالي. كيف سيكون شعوري، اذا رفضت مشاركتي افكارك وعواطفك؟

تطلع بيار نحوها، وعلى وجهه المتعب ابتسامة ساخرة، ثم قال لها فجأة:

- التفاخر... التفاخر والخوف اوقفاني عن اللحاق بك، وفرضا علي كتابة ما سميتها انت بتلك الملاحظة الوجيزة الكريهة. انا ايضاً

تألمت كثيراً، كما تعلمين. احسست بأن هربك مني دونما اي تفسير أو تبرير، طعن كرامتي حتى الصميم، وأذّل عزة نفسي... ومرغ شرفي بالتراب. لعنت حاضري ومستقبلي، إن انا ضعفت امام الحب وحاولت اللحاق بك. تصوّرت... كنت شبه مقتنع بأنك ستعودين.

- غطرسة، تكبر، عجرفة.

- ربما! ولكن امتناعي عن اللحاق بك، قد يكون ايضاً بسبب البساطة والسذاجة. فأنا آمنت بالقسم الذي تبادلناه يوم زواجنا، وتصورت انك انت ايضاً تؤمنين به وبقدسيته وديمومته. منحتك بعض الوقت للتفكير، ثم كتبت لك طالباً منك العودة. ولكني خفت من تضمين رسالتي حقيقة مشاعري نحوك، في حال رفضك دعوتي وطلبي.

مدّ يده وأبعد خصلات شعرها عن وجهها، ثم سألها بمحبة وحنان:

- هل تفهمينني الآن، يا حبيبتي؟ انا لست رجلاً معقداً جداً، وأتوخى البساطة في كافة اعمالي وتصرفاتي وعاداتي. عرفت الحب لأول مرة في حياتي... عندما التقيتك في الصيف الماضي. وفعلت آنذاك ما فعله والدي قبل خمسة وثلاثين عاماً بعدما التقى والدتي... طالبتك بالزواج. لم يكن هناك اي سبب آخر، أو اي ترتيبات من اي نوع من المرحوم خالك. اعرف انه كان سعيداً جداً بزواجنا، وانه صور لنفسه ان دعوته وحدها هي التي أدت الى ما يصبو اليه منذ فترة طويلة. ما بك الآن؟ لماذا تبكين؟

- لأنني سعيدة يا بيار. هذه هي دموع الفرح والسرور. اوه، بيار، لماذا لم تقل لي هذه الأشياء كلها من قبل؟

اقترب منها كثيراً وقال لها برقة:

- لأنك لم تسأليني ابداً من قبل... لأنك لم تهتمي كفاية لكي تسألي.

- احبك . . . احبك منذ البداية، ولم اتوقف ابداً عن هذا الحب.

رفع رأسه، وقال لها عابساً:

- لماذا اذن لم تعودي قبل الآن؟ لماذا هدرت تسعة أشهر رائعة من حياتنا وزواجنا؟

- لأنني لم اعرف مدى حبي الهائل لك، الا عندما رأيتك ثانية. ربما كان من الضروري أن ابتعد عنك لأعرف . . . ولأتأكد. اوه، بيار، لا تدعني ابتعد عنك مرة ثانية.

- احب ان أعانقك، والا ادعك تبتعدين عني ابداً . . . ولكني افضل القيام بذلك في مكان افضل من هنا، من حيث الراحة والبعد عن أعين الفضوليين. الى اين سنذهب؟ بلفين أو القصر؟

احست ايلاين بطعم الاثارة الحقيقية، وبشيء من الخجل، والارتباك نتيجة النظرات التي كان يوجهها لها. قالت له بصوت يرتجف عشقاً وهياماً:

- احب الذهاب الى بلفين، ولكن . . . ولكنه يجدر بنا التوجه حالاً الى شامبورتن قبل أن يساورهم القلق هناك بسبب هذا التأخير. وعلى اي حال، فانه يفترض بك حضور الاجتماع الذي سيعقد في تمام الحادية عشرة لقراءة الوصية.

- سنذهب اذن الى شامبورتن، ولكني اريد أولاً . . .

رفع رأسها نحوه ونظر في عينيها بتلك الطريقة التي استخدمها في الليلة الفائتة . . . والتي تبدو كمعاقبة لها على تمضية هذه الفترة الطويلة بعيداً عنه. شعرت ايلاين برجفة قوية في جسمها . . . وبأنها كانت على وشك الاختناق. تنفست بقوة وأسندت نفسها الى كتفه، فقال لها:

- لم يعد يهمني كثيراً سبب هروبك مني. لقد عدت، وستبقين معي الى الأبد. وتأكدي بأنك اذا حاولت الفرار ثانية، فسوف ألحق بك الى نهاية العالم . . . وأعيدك الى هنا.

أبعدها عنه برفق ومحبة، ثم ادار محرك السيارة وأطلق لها العنان

باتجاه شامبورتن. ثم قال لها بعد لحظات:

- اتصور انك تعرفين الآن، من المحامي لوجيه، بأن شركة سان فيران تملك كل شيء.

تابعت ايلاين تسريح شعرها، وهي تقول له:

- عرفت بعض المعلومات منه، والبعض الآخر من والدتك. لماذا لم تخبرني بذلك يوم وصولي، عندما اتهمتك بأنك تزوجتني لتشاركني الارث؟

- كنت على وشك القيام بذلك، لأنني دهشت كثيراً من اتهاماتك. لم تكن لدي اي فكرة على الاطلاق، انك لا تعرفين الا القليل عن شؤون خالك. ثم قررت استخدام اقتناعك ذاك، لحملك على القبول بتلك المصالحة الزائفة المزعومة.

ضحك بصوت عالٍ، ومضى الى القول:

- لم تكوني بحاجة الا الى بضع كلمات مختارة بعناية، لكي توافقي على أي شيء يحرمني من التحول الى وريث وحيد . . . لا يا حبيبتي! لا تهاجميني الآن، فقد تواجه السيتروين وضعاً مماثلاً للبيجو.

- ولكن، كان بامكانك اطلاعي على ما حدث معك بالنسبة لبلفين.

- لم اتصور اطلاقاً ان الأمر يهمك.

- لقد اعجبني البيت كثيراً، واعتقد ان بامكاني جعله اكثر جاذبية . . . هذا بالطبع اذا سمحت لي باجراء بعض التعديلات عليه.

ابتسم وقال لها مداعباً:

- هل يعني هذا انك رفضت عرضي بالطلاق؟ هل يعني هذا انك على استعداد للاستقرار هنا، وللتصرف كزوجة هادئة مسالمة لرجل فرنسي عادي . . . لمزارع بسيط؟ هل ستعدين الطعام والقهوة، وتنظفين الثياب والمفروشات، وتهتمين بكافة شؤون البيت الداخلية؟

احست ايلاين بالعرق البارد يتصبب من جسمها، فيما صمت الجميع وحولوا انظارهم اليها. . . وكأنهم يتهمونها بارتكاب جريمة فظيعة ورهيبة. هذا حقهم، وبخاصة انهم يحملونها مسؤولية تعاسة بيار وحزنه. ارادت أن تصرخ بهم قائلة انها حرة في البقاء أو في العودة، ولكنهم لن يفهموا ذلك ابداً. قالت بصوت متلعثم:

- لا. . . لا اعرف بعد، يا جانيت. لست. . . لست متأكدة. سررت برؤيتكما انت وجيل. شكراً لحضوركما.

غادرت ماري وزوجها برنار قصر شامبورتن، بعد نصف ساعة من ذلك، أعلنت مارجريت انها ستذهب الى النوم. ثم سألت ابنها:

- هل ستبقى الليلة هنا، ام انك ستعود الى بلفين؟

- سأبقى هنا، يا امي، كي احضر الاجتماع المقرر مع السيد لوجيه. تصبحين على خير، ايتها الحبيبة.

قطبت مارجريت حاجبيها، وهي تنظر الى يده اليمنى، وقالت:

- أرى انك جرحت يدك يا بيار. هل تؤلمك كثيراً، يا بني؟

- لا، فالجرح عادي وبسيط للغاية.

- انا مسرورة بحضورك هذا المساء مع ايلاين، واتمنى. . .

لم تكمل جملتها، وأدارت وجهها عنهما لتصعد الى غرفتها. ولكنها نظرت اليهما ثانية، وقالت:

- تصبحين على خير يا ايلاين. تصبح على خير، يا بني. سأراكما غداً باذن الله، وربما ستخبراني عندئذ سر هذه السعادة الفائقة التي تشعران بها!

انتظرا حتى وصولها الى غرفتها وسماعهما اغلاق الباب، ثم تحولا الى بعضهما. تشابكت يداهما وصعدا صامتين نحو غرفة النوم في برج القصر. وما ان اغلق بيار باب الحجرة وراءهما، حتى رفع رأسه وقال متمتماً:

- اعتقد ان امي احست بالموضوع.

- وأنا اعتقد ذلك ايضاً.

ثم خلعت حذاءها، واضافت قائلة:

- اخشى انني فضحت السر أثناء العشاء.

سألها عن سبب اعتقادها هذا. ضحكت بصوت خافت، ثم ابتعدت عنه قليلاً وقالت له:

- كنت احدق بك طوال الوقت. وعندما ودعتني جانيت وجاءت على ذكر العودة الى لندن، شعرت بالارتباك الشديد ولم اتمكن من التعليق على كلامها. اردت افهامها بأن البقاء هنا أو الذهاب الى بريطانيا، ليسا من شأنها اطلاقاً.

- انا مسرور جداً لأنك لم تفعلي ذلك، اذ كان جواب كهذا سيثير بعض الحساسيات والمشاكل التي نحن بغنى عنها.

تلاقيا قرب النافذة ووقفا هناك بضع لحظات، فيما كان ضوء القمر يغمر معظم ارجاء الغرفة. وفجأة قال لها بتحد رقيق:

- لنكتشف الآن ما اذا كانت رحلة السعادة تستحق كل هذا الانتظار.

هزت رأسه المتكىء على كتفها وسألته بصوت دافىء:

- هل كانت تستحق الانتظار؟

اجابها هامساً، بصوت يضج ارتياحاً:

- ماذا تعتقدين انت؟

- اعتقد انها كانت ذروة في البهجة والهناء. ولكني آمل في الا تزعجك النتائج، التي ستتمخض عنها.

رفع رأسه لكي ينظر الى عينيها، وسألها مستفسراً:

- ماذا تعنين بذلك؟

- بعد ليلة امس وهذه الليلة. . . قد نرزق اجمل ما في هذه الحياة. هل تفضل صبياً ام بنتاً؟

- رباه! لم افكر بهذه المسألة اطلاقاً!

انفجرا ضاحكين كمن اصابهما مسّ من الجنون، وقالت له:

ـ كم انا سعيدة، يا حبيبي، لأنك انت ايضاً لا تفكر في بعض الأحيان.

ثم طوقته بذراعيها، وسألته بهدوء:

ـ هل اخبرك الخال ارمون عن حلمه، في ان يثمر زواجنا عن طفل يصبح الوريث الشرعي لشامبورتن؟

ـ نعم. قال لي ذلك ليلة الجمعة، عندما أمضيت معه فترة طويلة.

توقف لحظة، ثم مضى الى القول:

ـ ولكني ارجو مخلصاً في الا يجعلك ذلك تتصورين، ان هذا هو سبب حبي لك.

ـ لا، لا، يا حبيبي، لم اتصور ذلك ابداً. على اي حال فشامبورتن لم تكن له ليترك شيئاً منها لأحد.

واضافت بصوت جدي هامس:

ـ ارجو أن تغفر لي تصوري جميع هذه الأشياء الفظيعة عنك.

ـ سأغفر لك، اذا سامحتني انت عن كافة تصرفاتي الخسيسة معك. لم اتمكن من السيطرة على نفسي وأعصابي. انتظرتك فترة طويلة للغاية، وفجأة وجدتك قربي... جميلة، رائعة، جذابة، مغرية...

ـ كفى، فأنا ايضاً كنت احترق شوقاً اليك... حتى على الرغم مما قلته اليوم، من ان الحب لم يكن جزءاً مما حدث.

ـ قلت لك ذلك، لأنني لم اكن متأكداً من كيفية شعورك انت.

ـ ولكنك تعرف الآن، أليس كذلك؟ قلها يا بيار، ارجوك. قلها، لأنها حقيقة ثابتة لا غبار عليها، احببتك امس، وأحببتك اليوم، وسوف أظل احبك الى الأبد... ولن ابتعد عنك بتاتاً.

ـ لن يحدث ذلك ابداً، يا حبي، لأنه لن تسنح لك فرصة ثانية.